المسيحيون السوريون
قديماً وحديثاً

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

سمير عبده

المسيحيون السوريون
قديماً وحديثاً

منشورات دار علاء الدين

❖ **سمير عبده**
❖ **المسيحيون السوريون: قديماً وحديثاً**
❖ **جميع الحقوق محفوظة**
❖ الطبعة الأولى: آب ٢٠٠٠
❖ **تنضيد وتنفيذ وتوزيع**
دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة
دمشق ــ سوريا ــ ص.ب: ٣٠٥٦٨
هاتف: ٥٦١٧٠٧١
فاكس: ٥٦١٣٢٤١

❖ **صورة الغلاف من الأعلى:** طلاب أول مدرسة أسست في الجزيرة ــ سوريا في عشرينيات القرن العشرين برعاية السريان الأرثوذكس

❖ **صورة الغلاف من الأسفل:** أمسية ثقافية لإحدى الجمعيات المسيحية في باب توما ــ دمشق عام ١٩٩٥.

❖ **جميع الأفكار والآراء الواردة في الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف**
❖ **في حال أخذ أية مادة من الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر**

مقدمة

لم يكن يخطر لي منذ بضع سنوات أن أكتب في موضوع كالذي أطرقه الآن، فذلك الخاطر كان بعيداً عني ويهولني أمره، ولكن حين اعتزمت على كتابة كتابي الأول في هذا الموضوع «المسيحيون السوريون خلال ألفي عام» تبين لي وعورة الطريق إلى مثل هذا البحث، وما قد يكتنفه من الحساسية لدى البعض، مع ما أخذت به نفسي من الحيدة والموضوعية في كل ما أكتب.

وحين شرعت في البحث وجدتني غارقاً في خضم مئات المراجع، فلا أدري بأيها آخذ، أو أيها أترك، وكلها تعرض مادتها من وجهة نظر أصحابها أو الجهة التي تصدرها. وقد أتاحت لي هذه المصادر أن أكمل بحثي وأوفر له أكبر عدد من المراجع التي تدعم مادته.

وعندما يصف المؤرخ حدثاً ما ويريد أن يعطيه وزناً وقوة تأثير يلزمه حتماً ألا يكون مقتنعاً بقيمته مسبقاً أو بتفاهته مسبقاً، يجب أن يفترض أن مغزاه سيظهر تدريجياً يوماً بعد يوم وعملاً بعد عمل، وحكماً بعد حكم، بدون أن يأمل أن يرسم صورته الكاملة التامة القارة. كل عمل تاريخي ناقص بدون معرفة نتائجه، وهذه تتشعب وتتوالى إلى ما لا نهاية، وكل حكم في التاريخ قابل للاستئناف للسبب ذاته. وهذا المبدأ[1] أو (الافتراض الفلسفي، يجب أن نوضح أن المبدأ المناقض له، مبدأ الحقيقة المطلقة التي تنكشف في إشراقة مباغتة لا يعدو أن يكون أيضاً افتراضاً). هو في آن واحد أساس النزعة التاريخية «التاريخانية» والديمقراطية والعلم الحديث.

وقد وجدت بعد فترة أن كماً هائلاً من المعلومات والوثائق والمصادر لم أتناولها في ذلك الكتاب، أو أن تناولها كان سريعاً، ولهذا اعتزمت أن يكون كتابي هذا مكملاً للأول. وأرجو أن يجد القارئ نوعاً من الصلة بين الاهتمامات الرئيسة التي تربط هذا الكتاب بما سبقه، كما أرجو

---

[1] عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي دار الحقيقة ــ بيروت ١٩٧٣ ص١٠٠.

أن يرى تقدماً في أسلوب البحث وطريقة العرض، وفي الأطر التي ترسم فيها القضايا، وفي منطلقات إثارتها ومعالجتها، ذلك أن جلاء المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها الحياة الصحيحة هي التي تحدد الغايات التي تتجه إليها حياة الأفراد والمجتمعات، وتعين الوسائل التي تتخذها هذه الحياة، وتكيف سائر الاختيارات الواعية وغير الواعية التي تكونها وتميزها عن سواها.

وفي مثل هذه الحال لابد، إذا أريد لهذه الحياة الجائشة المتحولة أن تحقق إمكاناتها خير تحقيق، من جهد متصل لاستبانة الفكر الأساسية التي تدور في الأذهان، واستخلاص الغايات والوسائل التي ترسم في الأخيلة والبصائر والتمييز بين صحيحها وفاسدها.

إن أية دراسة لطائفة من الطوائف نحاول دراستها بذاتها، سنظل مقصرين في ذلك، مهما نقبنا فيها وقلبنا على وجوهها وفصلنا دراستها، نظل قاصرين عن فهمها على حقيقتها إلا إذا ربطنا ذلك بسواها من مظاهر الأديان الأخرى وتبينا علاقتها بأوضاعها الاجتماعية والدينية وكوّنا في ذهننا صورة جامعة لهذه الطائفة صادقة في النفاذ إلى لبّها وفي تصوير أشكالها واتجاهاتها وبواعثها.

وابن هذه الطائفة من الطوائف المسيحية أو غيرها تائه في تاريخ طائفته، يجهل حقيقة ماضيها ولا يعرف سوى القليل عن معتقدها، ولئن وجدت طائفة من هذه الطوائف كواقع اجتماعي ديني، فلا وجود لوعي معين لحقيقة تاريخ الطائفة ومعتقدها. وتكفي مقارنة بسيطة بين آراء المؤرخين المسيحيين لإظهار مدى التباين والتناقض في المعلومات التي يتداولونها.

إن الجهل بمعرفة كل طائفة دينية وما تنادي به وتعمل لأجله يساهم في زيادة عقدة الخوف وتعميقها لدى أبناء الطائفة، وعقدة الخوف هذه هي أيديولوجيا انعزالية ومادة «تخويف» وتحريض تستغل لتغذية العصبية الطائفية التي تعمل على ترسيخها لأغراض سياسية متعددة.

ونحاول في هذا الكتاب أن نقول شيئاً فيما يخص المسيحية في هذه المنطقة حيث النشأة والاستمرارية عبر ألفي عام وما اعتور ذلك من صعوبات وعذابات واضطهادات وانقسامات فمرارة الاغتراب وضعف الدور الرائد لها في هذه المنطقة والهواجس التي تراود مريديها حول المستقبل.

وبعد المقدمة هناك تمهيد للدخول إلى الموضوع حيث كان المسيحيون السوريون من أعتق المسيحيين في العالم، أقرب إلى المسيح المتجسد، وكيف استوعبت سوريا المسيحية، واللغة التي وحدت الأديان في هذه المنطقة مما لا يمكن المرور عليه دون الإفاضة في هذا الدور، مع مهمة التاريخ في الوقت الراهن.

ويتضمن الفصل الأول مدخلاً مكثفاً إلى قيام المسيحية حيث انتشر الدين الجديد في فلسطين ــ سوريا مروراً على وضعية اليهود ونشأة المسيحية وتناول الكتب المقدسة لكلا الدينين إلى تكوين المسيحية والصعوبات التي لاقتها.

ويتناول الفصل الثاني النسيج الذي جمع بين المسلمين والمسيحيين في هذه المنطقة ضمن أكثر من واقعة وموقف واتجاه حيث نرى دفائن في التاريخ المشترك بينهما جعلتهما عائلة روحية واحدة كَبِرَ الوطن بهم وهم ورثة ماضٍ مجيد مما يدعو إلى حوار مستمر بينهما.

ويتضمن الفصل الثالث كيف نمت المسيحية في سوريا والدور الذي لعبه السريان حين بزوغ الإسلام وكذلك الأمر لبقية المسيحيين مع إحصائيات هامة بعيدة وقريبة لمجموع أفراد الطوائف تبين توسعها ومن ثم تقلصها حتى يتم للقارئ معرفة إلى أين وصلت «الأقلية المسيحية» في الوقت الراهن.

والفصل الرابع كان محوره المسيحية وانقسام الطوائف حيث قامت المسيحية على طائفة واحدة وبدأت انقسامات الرأي تنتابها حتى أضحى عددها كبير، في استعراض للمراحل التاريخية، للانشقاقات الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية والتزاحم اللاتيني على كنائس الشرق الكاثوليكية مع بيانات عن حالة التحولات من الأرثوذكسية إلى الطوائف الأخرى مما زاد من عدد الكنائس المسيحية المنشقة عن الكنيسة الأم وهو ما ندر بيانه في مصادر أخرى.

أما الفصل الخامس فيتناول الطوائف المسيحية والبحث عن الهوية حيث كان المسيحيون من أوائل من دعم وجود الهوية العربية لهذه المنطقة، منادين بالعروبة أولاً وبناء الوطن ثانياً، جاهدين إلى قدم المساواة مع إخوانهم المسلمين في مواطنية واحدة. وقد اخترنا أربعة طوائف مسيحية هامة كنموذج وهي كنيسة السريان الأرثوذكس والكنيسة المارونية، وكنيسة الروم الأرثوذكس وأخيراً الروم الكاثوليك حسب التسلسل التاريخي لها.

وفي خاتمة الكتاب كان لنا وقفة مع القوة التنظيمية للكنائس، وكيف كان التعاون قائماً بين المسلمين والمسيحيين والمخاوف التي تنتاب الأخيرين من عقدة تفوقهم، وكيفية معالجة الكنيسة للخلافات بين رجال الدين وعلمانيها والمنازعات التي تنشأ بين عدة كنائس والحرب الخفية في نسبة هذا القديس إلى هذه الكنيسة أو تلك، وضعف الكنيسة من نقص رعاياها في اغترابهم.

هذه الموضوعات تستكمل بعضاً من حلقة البحث عن المسيحية السورية عبر مشوارها الطويل الذي ناهز الألفي عام، والذي لا يكفيه كتاب واحد أو اثنين، فهناك تقصير كبير عن

الدراسات الثقافية ــ الاجتماعية للطوائف المسيحية في هذه المنطقة مما يمكن كتابة عشرات المؤلفات عنه.

ومعروف أن العلاقة وثيقة في الحقل الاجتماعي بين مفهومي الثقافة والمجتمع نظرياً وفي الواقع الاجتماعي كذلك، وحتى ولو أمكن التفرقة النظرية بينهما، إلا أن الظواهر التي يعبران عنها لا تنفصل بعضها عن بعض في الحقيقة والواقع. فالثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع، ثم إن المجتمع لا يقوم ويبقى إلا بالثقافة. إن الثقافة طريق متميز لحياة الجماعة، ونمط متكامل لحياة أفرادها. ومن ثم تعتمد الثقافة على وجود المجتمع، ثم هي تمد المجتمع بالأدوات اللازمة لاطراد الحياة فيه، وهو ما كان للمسيحية السورية.

وأخيراً، فإن هذا الكتاب يجيب على سؤال طال انتظاره: لماذا تراجع عدد المسيحيين بعد أن كانوا أكثرية في هذه البلاد، وإلى أين أدى انقسام الكنائس المسيحية على بعضها مما أضعف وحدتها المشرقية وهي ميزتها بين سائر الكنائس العالمية، ومدى اللحمة بين المسلمين والمسيحيين في نسيج الوطن الواحد، وهل وصل الدور العلمي والثقافي للمسيحيين في هذه المنطقة إلى النهاية فبات الآن ضعيفاً قياساً إلى السابق، وأسئلة أخرى سيرى القارئ أجوبة لها في سياق الكتاب.

إن مصادر البحث متنوعة، وربما لا يمكن إدراجها تحت فصيلة واحدة من المصادر، فهي تشمل مصادر تاريخية وأدبية واجتماعية وسياسية، قديمة ومعاصرة، وتلتقي هذه المصادر في أنها تعبر عن عنوان الكتاب مع التركيز على تتبع هذا الموقف إلى جذوره العميقة في التاريخ، أو بين الشرائح الاجتماعية المختلفة.

ولابد لي من أن أنوه هنا بمصدر أغنى دراستي كثيراً وهو مجلة المسرة الصادرة في حريصا ــ لبنان التي راجعت سنين مديدة من عمرها ١٩٤٢ ــ ١٩٧٣، وهذه المجلة الشهرية، مسيحية شرقية، تكتب بأسلوب عربي راق وتتناول مواضيع دينية مسيحية، كما من سياستها إيجاد تفاهم مسيحي إسلامي. وكذلك مجلة المشرق الرصينة وغيرها من المطبوعات.

وأود أن أعبر عن شكري الحار للسيد أنطون يامين اليوسف الذي قدم لي أشد المؤازرة في مراجع هذا الكتاب فله الشكر وللقارئ الحصيف الذي يهتم بهذه الدراسات.

سمير عبده

ص. ب: ٩١٤ ــ دمشق.

تمهيد

المسيحيون السوريون من أعتق المسيحيين في العالم، أقرب إلى المسيح المتجسد من غيرهم.. لغة وعرقاً ومكاناً ومصيراً. شاء لهم مع شرف قرابتهم هوان نصيبهم، فحفظوا إلى هذا الزمان، ليتابعوا آلامهم على نفس الأرض التي شهدت استشهاده في ذلك الزمان. و لم يعطهم كما أعطى لمسيحيي الغرب وبيزنطية ملكاً زمنياً، ولو ليوم واحد، بل أعطاهم التصاغر العددي مع التعمق الروحاني، فيما المسيحيون في غير مكان كانوا يتوجهون أفقياً إلى التوسع الرسولي والجغرافي.

ومع عظمة مسيحية ومسيحيي سوريا فإن أول ما يعيّرهم به الإنجيل هو الانفصام والتفرق.. أرادهم المسيح واحداً فلم يقيموا إرادته. والشيطان فرّقهم شيعاً فامتثلوا لإرادته.. يؤمنون بكنيسة واحدة ولكن كل على حدة: أساقفة أفسس وخلقيدونية فصموا وحدة كنيسة إنطاكية في الجيل الخامس.. أساقفة الجيل الحادي عشر شطروا وحدة كنيسة القسطنطينية وروما شطرين.. وأساقفة الجيل السادس عشر كسروا وحدة الكنيسة الغربية، فإذا في الشرق والغرب، انطلاقاً من كراسيها الأربعة الرسولية: إنطاكية والإسكندرية وروما والقسطنطينية متصدعة.

هؤلاء المسيحيون السوريون يوقنون بأن المسيح مخلّص العالم كله، وتحتجز كل فرقة خلاصه لمصلحة نبيها. يعترفون بتجسده في الإنسان وتتضارب بهم الآراء حول نوع تجسده. يقولون جميعاً بتجلي اللاهوت في الناسوت وتزعم كل شيعة أن تفسيرها للسر هو الصواب. السريان يقولون إن المسيح قنوم واحد وطبيعة واحدة، والروم يقولون إن المسيح قنوم واحد وطبيعتان، والنسطوريون يقولون إن المسيح قنومان وطبيعتان، وهكذا نرى أن الهرطقات في الكنيسة إنما قامت على الصَلَف وحب الرئاسة، فإذا لجأنا إلى الفلسفة نرى أن هذه الاختلافات لا تتجاوز التعبير، فالعقيدة هي نفسها لدى الجميع. يقولون إن المحبة وحدة تستطيع مصالحة

الشعوب، بينما هم مفرقون(*) يؤمنون بالكلمة التي ظهرت للمساكين، ويتكلمون بعد بلهجات ميتة يجهلها الناس.

أحراسهم لا تدق على عيد واحد.
يموت المسيح في طائفة ويقوم في طائفة أخرى.
وبينما هذه تبكي في تذكار آلامه، تكون تلك تهلل لانبعاثه.

ولو عاد المسيح ثانية لطوى التاريخ كله، ولعادت الكنيسة في سوريا إلى وحدة كنيسة إنطاكية وسائر المشرق، الذي بقي اسماً شرفياً للبطاركة الشرقيين(**).

في هذا السياق يمكن الحديث مطولاً عما آلت إليه المسيحية من تشتت وانقسام في الأهداف ربما وصلت إلى حد تفتيت المسيحية السورية وهي الأساس والمنبع للمسيحية العالمية، التي مثلت دوراً أساسياً في تطور الفكر الفلسفي والأخلاقي بتأييدها على التماثل الأساسي بين مفاهيم الروح والمحبة، واللامتناهي، وظهرت تعاليمها في الأخلاق في معطيات الإنجيل، وفي رسائل القديس بولس، ومؤلفات القديس أوغسطينس، والقديس يوحنا الذهبي الفم، والقديس توما الأكويني وغيرهم.

المسيحيون عقيدتهم المحبة وهي تعبر عن امتدادهم إلى كل الخليقة، ومن هنا فهم طائفة وحركة. إن شخص يسوع الناصري بما كان فيه من ثورة جعل عند المسيحيين دائماً الإيمان بالقدرة على الخروج من أنفسهم وتجاوز أنانيتهم.

من هذه الناحية هناك تلاق في الحقيقة وفي العمق بين المثقفين المسلمين والمسيحيين، وفي الحوار في إعادة تحليل الواقع وفهمه، حتى أنتج هذا البلد وهذا التلاقي نموذجاً بشرياً نادراً في المشرق العربي.

الحياة العربية الإسلامية في بلادنا كانت كناية عن استيعاب العلوم والفنون والصناعات والموسيقى ومفاهيم الإدارة، والمسيحيون هم الذين أعطوا الحضارة العربية قدرتها على

---

* اضطر الخليفة الأموي معاوية سنة ٦٥٩ أن يحكم في خلاف نشب بين مطران ماروني من جهة والبطريرك السرياني تيودوروس ومطران قنسرين سفاريوس سبّوخ من جهة أخرى، فخسر الأخيران، وحُكم عليهما بدفع غرامة مالية سنوية نقدية قدرها عشرون ألف دينار.

** من حوار مع الأديب اللبناني توما الخوري يقول به:
«لم يعد في إنطاكية كرسي بطريركي، وإنما هناك «كتبة» طويلة يستقر عليها بطريرككم وبطريركنا وبطاركة الطوائف الأخرى». عن مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٧٥/٦١ آذار ص٢٠٩.

الاستيعاب من حضارات ومدنيات الإغريق وفارس والسريان، وقدرتها على الوصول إلى كل الآفاق التي امتدت إليها. من هنا فإن هذه الخدمة الإنسانية الثقافية كانت أساس علاقة إسلامية مسيحية متينة.

ألم يوكل إلى المسيحي السوري ليون الطرابلسي حملة الفتح الأموية الأولى الزاحفة على القسطنطينية من البحر، فكم كانت العلاقة حميمة بين أبناء سوريا آنذاك، وكم كان التسامح قائماً حين يقود مسيحي أرثوذكسي أسطولاً لدولة وظيفتها إشاعة الإسلام ضد دولة أرثوذكسية. إن تشبث المسيحيين السوريين ببلادهم جعلهم لا ينجرّوا إلا وفق مصالح دولتهم دون الاعتبارات الدينية التي تجمعهم بالخصم مميزين بين الدين والدنيا في علاقاتهم السياسية.

يقول المطران جورج خضر: هناك نوع من العشق بين المسيحيين والمسلمين، نوع من الجاذبية.. فالمسيحي كان دائماً يسحر الإنسان المسلم، ولذلك جاء العطاء وكان التلقي الجميل للعطاء والانطلاق به، وقد يفيد أن نذكر قول أخوان الصفا «كن عربي الدين وعيسوي الأخلاق»[1].

سوريا واستيعابه المسيحية

سوريا واحدة من أقدم مراكز التواصلية الحضارية في العالم. وهذه الاستمرارية، التي بدأت بعصور ما قبل التاريخ وما تزال مستمرة إلى يومنا هذا، أفرزت، عبر موجات الشعوب والحضارات والتلاقح الثقافي الداخلي الخارجي، تيارات فكرية جعلت من سوريا واحدة من أغنى دول العالم بالتعددية العقائدية: تعددية دينية، تعددية مذهبية، تعددية فكرية. وهذه التعددية التي تميز سوريا عن غيرها من الدول العربية، يمكن أن تشكل المعنى الأقوى، إذا أحسن استخدامها وتوظيفها، ضد كل أشكال الانغلاق والتطرف، وبالتالي التخلف المعرفي والحضاري[*].

وسوريا الطبيعية كما خلقها الله تضم سوريا دون التجزئة والقضم الذي أصابها خلال القرن العشرين مع لبنان وفلسطين والأردن، وهي البلاد التي يسميها العرب «أرض الشام» برغم تقسيمها السياسي واختلاف الحكومات القائمة فيها.

---

(١) مجلة الجدار ــ بيروت العدد الأول ــ السنة الأولى ١٩٩٤ ص١٧، من مقابلة مع المطران جورج خضر.

(*) نبيل فياض: مدخل إلى مشروع الدين المقارن ــ دار كركت ــ جونية ١٩٩٦ ص٢٩.

وكانت إنطاكية عاصمة سوريا نحو ألف سنة، من القرن الثالث قبل المسيح إلى ما بعد الفتح العربي، عهد تغلبت عليها دمشق عاصمة الأمويين. وبقيت إنطاكية العاصمة الكنسية لمسيحيي سوريا إلى القرن الخامس عشر إذ كانت مركز بطركيات فعلي. ولما خربتها الزلازل وضغط الحكام على بطاركتها انتقلوا إلى مكان آخر وبقي لقب بطاركتها إلى الآن «بطريرك إنطاكية».

كما أن سوريا مسقط رأس المسيح، أو موطناً لعدد من كبار المؤلفين الذين ندعوهم «آباء الكنيسة» و«معلمي المسكونة» الذين دافعوا عن العقائد المسيحية ضد الوثنيين، أو بينوها وفسروا الكتاب المقدس والتقليد الرسولي في ردهم على البدع التي قامت بين المؤمنين منذ القرون الأولى.

وكانت سوريا الكبرى ــ بتعبير جغرافي ــ ملتقى القارات، ومحور الحضارات والثقافات والديانات مما جعلها قبلة كل طامع أو فاتح، وذاك الموقع والقدر جعلاها عاجزة، أو نافرة عن إنشاء إمبراطورية مثل جميع جيرانها.

وسوريا بكل عظمتها الروحية وما تمثله للمسيحية الأولى كانت دائماً موضع جهل وتجهل من قبل الغرب المسيحي لها وقد حاولت جاهدة أن تنتزع صفة «الشرقية» عن الطوائف الكاثوليكية المنضمة لها حتى تفرغها من هويتها القومية.

يقول الأب الماروني يواكيم مبارك: الشرق السرياني هو النسيب المحتقر في إطار المسكونية، إذ لا اعتبار له، بل إنه مهمش لا دور له على الصعيدين الأكاديمي والكنسي. بالرغم من ذلك فإن سريانية الكنيسة تمثل الدور الشريك الفاعل في تنمية روح المسكونية، وهي الخير الروحاني الواعد عندما ننظر إلى الماضي وتراثه الحي.[1]

والإطار الذي نشأت فيه الروحانية السريانية* يتميز بتاريخ لا يتردد الأب يواكيم مبارك بوصفه بالتاريخ «الذليل المهان»، إذ إن مسيحيي الشرق السرياني نالوا نصيبهم من الإمبراطوريات المسيحية والإسلامية. ويبرر مبارك هذا الوصف بسرد تاريخي موضوعي. وهذا التاريخ هو أيضاً تاريخ الشرق السرياني «المحاصر والمشتت». فهو «محاصر» لأن الحياة المدنية ممنوعة عليه، و«مشتت» لأن الارتداد إلى حياة العبادة وتقوقع الحياة المدنية فيها يدفعان أبناء

(١) مقطع من كتاب «مخدع القلب الروحي» للخوري يواكيم مبارك، راجع الأب سليم دكاش: روحانية الشرق السرياني مجلةالمشرق بيروت السنة السبعون الجزء الأول ١٩٩٦ ص١١٣.

* تعبير السريانية هنا كان يطلق على الكنيسة المسيحية في القرون الأولى لنشأتها.

الجماعة إلى الهجرة والشتات. ومع ذلك كله، فتاريخ الجماعات السريانية الشرقية هو تاريخ الجماعات المتجذرة والمنثقفة والمشرقة، وهذا ما جعلها تتمدد خارج حدود الشرق، ضمن حياة رسولية ناشطة، حتى القرن الثالث عشر. ولا شك في أن هذه الجماعات قامت، إبان القرون الوسطى، بدور الوسيط الثقافي بين اليونانية والعربية أولاً، ثم بين الحضارة العربية وزمن الحداثة المعاصرة ثانياً[1].

إن الحديث عن المسيحيين السوريين لا يتناول جانبهم الديني فقط، بل يتناول قصتهم في البقاء خلال ألفي عام·والتضحية التي قدموها والمحاربة التي جابهوها، ليس من وسطهم أحياناً، بل من أفراد دينهم في الغرب الذين سعوا لمسح الهوية الشرقية عن مسيحيي هذه المنطقة، وجعل المسيحي فيها يحمل هويته الدينية دون هويته القومية، وهو ما جاهدت معظم الطوائف المسيحية في صراعها للحفاظ عليه، وجعلها تقدس اللغة العربية «فلسان الأمة جزءٌ من عقليتها[2]» والقومية العربية وتحافظ على حضارتها في أصعب المراحل حين كان العلم يتم عن طريق المدرسة التركية والقومية العثمانية.

لهذا كان سعي المسيحية السورية إلى الحفاظ على المكاسب والإنجازات، ذلك أن الحضارة تبقى وتتقدم ببقاء هذه المكاسب، فإذا ضاعت أو ضعفت، ضعفت الحضارة وافتقرت. كما أن جانباً مهماً من هذه المكاسب، وهو الجانب الناتج عن فعل العقل «والتفكير كلام باطني[3]»، هو بطبيعته متماسك مترابط، كالسلسلة المتصلة الحلقات، فإذا فقد بعضه لم يمكن التقدم إلى ما عداه إلا بعد استعادته ووضعه في مكانه الصحيح.

كما كان هاجس المسيحيين السوريين التمثل بتعاليم كنيستهم ورفع شأن العلم وإعلاء كلمة الحق والتمسك بوطنهم وتحصينه بالقومية العربية، فرسالتهم هي صون ورعاية لهذه المبادئ مثلما هي ابتكار وإبداع وتحقيق واكتساب. وإذا كانت المكاسب لا تحصل بذاتها، بل بالفعل الإنساني، كذلك هي لا تبقى ولا تحفظ بذاتها، بل بحرص البشر وجدّهم. إنها إذا تركت لذاتها ضاعت وتبددت، كما أن التقدم إذا توقف غدا تأخراً وارتداداً. وكما يقول قسطنطين زريق «العجز عن الصون والرعاية، كالعجز عن الكسب والجني والإبداع، هو دليل بدائية أو عودة البدائية»[4].

---

(١) الأب سليم دكاش مجلة المشرق ــ بيروت مصدر سابق ص١١٦.

(٢) محمد عثمان نجاتي: علم النفس في حياتنا اليومية دار القلم ــ الكويت الطبعة الثامنة ١٩٧٩ ص٢٥٨.

(٣) أنور الجندي: الفصحى لغة القرآن ــ دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ١٩٨٢ ص٢٥٢.

(٤) قسطنطين زريق: في معركة الحضارة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٤ ص٣٣٨.

ونحن نحاول أن نبرهن على أن استمرارية نمط الحياة تعتمد على وجود علاقات تساندية متبادلة، بين تحيز ثقافي معين ونمط محدد للعلاقات الاجتماعية، تلك التحيزات والعلاقات لا يمكن الخلط والتوفيق بينها معاً، وهذا ما نسميه «شرط الانسجام». فأي تغير في طريقة إدراك الفرد للطبيعة المادية والإنسانية على سبيل المثال، يؤدي إلى تغيير في مدى السلوك الذي يستطيع الفرد تبرير الأخذ به، وبالتالي في نموذج العلاقات الاجتماعية التي يستطيع الفرد تبرير عيشه فيها. إن القيم المشتركة والمعتقدات لا تتلاقى بشكل عشوائي وإنما هي دائماً مرتبطة بالعلاقات الاجتماعية التي تساعد في إضفاء الشرعية عليها.[1]

وأظن أن غاندي كان على صواب حينما قال: «إن الديانات تمثل طرقاً مختلفة تتقدم نحو هدف واحد. وإذا توصل إنسان إلى قلب ديانته، فهو بذلك يكون في قلب الديانات الأخرى».

اللغة وحدة الأديان

يلتقي المسيحيون السوريون والعرب المسلمون روحياً في عقيدة توحيد ذات الله سبحانه، والإيمان باليوم الآخر، وكلاهما شعبان ساميان من أصل واحد ومنبت واحد، واللغتان السريانية والعربية لغتان شقيقتان تفرعتا عن الدوحة السامية الكبرى، كما يلتقي الطرفان بعد الفتح العربي اللغوي تحت راية العروبة ويصبحان شعباً عربياً واحداً يدين أحدهما بالمسيحية والآخر بالإسلام[2].

وهناك ربط دائم في أذهان الناس بين اللغة السريانية والمسيحية السورية، حيث تكلم المسيح بهذه اللغة وبها بشر بالمسيحية ولها أمجاد مسيحية كبيرة، خاصة بثقافتها. في حين هناك ربط ثان بين العربية والإسلام، حيث ارتبطت الدعوة الإسلامية منذ ظهورها ارتباطاً وثيقاً بلغة العرب، فالمعجزة الكبرى للإسلام تتمثل في القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين ودُعي المسلمون في جميع بقاع الأرض إلى التعبد ببعض نصوصه. فهم في صلاتهم ونسكهم وفي كل شعائر الإسلام يطالبون بقراءة ما يستطيعون من آياته البينات، فلا تصح صلاتهم ولا يتم تعبدهم إلا بترتيل تلك الآيات.

---

(١) مجموعة من الكتاب: نظرية الثقافة ــ ترجمة: د. علي سيد الصاوي ــ سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٢٣ ص٣٢.

(٢) المطران إسحق ساكا: كنيستي السريانية مطابع ألف باء ــ دمشق ١٩٨٥ ص٧٩.

يقول ابن هشام إن أواصر القربى بين اللغة والفكر، وبخاصة من خلال اعتبار اللغة جهاز الفكر ومظهره حقيقة تؤيدها الوقائع وتدعمها البراهين، إذ المعاني كامنة في النفس، وهي موجودة فيه بالقوة، ولا تبرز بالفعل إلا من خلال اللغة. فاللسان أداة بيان ما في الفكر، مما يعبر عنه باللفظ المفيد[1].

ولما كانت اللغة نشاطاً إنسانياً، فقد ارتبطت بعلم النفس ــ خاصة في العصور المتأخرة ــ فتعامل عالم النفس مع اللغة «باعتبارها سلوكاً يمكن إخضاعه للدراسة باستخدام المناهج والأساليب السيكولوجية المختلفة»[2].

وهذا ما يجعلنا حين تناول المسيحية السورية من ربط ما بين اللغة التي كانت سائدة آنذاك، وهي لغة الشعب، أي الآرامية السريانية والهوية المسيحية السورية. صحيح أن السوريين المثقفين قد درسوا اليونانية وكتبوا بها، ولكن ليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد أنهم استعملوها في حياتهم البيتية باستثناء أولئك الذين نشأوا في المستعمرات اليونانية. ولم تتأثر أكثرية السكان في سوريا بالحضارة اليونانية قبل وبعد نشوء المسيحية بأكثر مما تأثر به السوريون المعاصرون بالحضارة الفرنسية.

وتسمية السريانية أعقبت المسيح وأطلقت على الأقوام الناطقة باللغة الآرامية التي اعتنقت الديانة المسيحية وظل لقب الآراميين يطلق على الفئات التي بقيت على الوثنية.

وأخذت اللغة السريانية تتوسع حتى أضحت اللغة الشعبية المتداولة في سوريا مربوطة بلغة المسيح والكنائس السورية الأول. من هنا يمكن الحديث عن الرمز الذي اقترن بين تسمية «سوري» كمواطن و«سوري» كسرياني أو مسيحي.

وإلى القرن العاشر، أو الثالث الهجري كانت السريانية قوية في هذه المنطقة، ومن القرن الرابع عشر أخذت اللغة العربية تكتسحها وبقيت السريانية متداولة في بعض مناطق الريف السوري إلى مائتي عام مضت، إضافة إلى الكنائس الشرقية الأصل.

لم تكن اللغة العربية غريبة عن السريانية، فالكثير من القبائل العربية كانت مسيحية وسريانية حيث انتشرت بين العرب بشكل ملموس وواضح منذ القرن الرابع، ومعظم قبائل العرب ذاقت حلاوة الدين المسيحي حيث قال مؤرخو العرب الثقات: إن النصرانية كانت

(١) ابن هشام: شرح شذور الذهب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد للمكتبة التجارية الكبرى ــ مصر ١٩٦٥ ط١ ص٢٨.
(٢) د. جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي ــ سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٤٥ ص١٧.

فاشية بين العرب. وتبادل الكلمات بين السريانية والعربية ليس بالقليل، كما لم يمض وقت طويل حين كان يكتب الخط «الكرشوني» وهو العربي بحرف سرياني، حتى أن الحروف العربية كان عددها كالسرياني ومن ثم زيدت ستة أحرف. لقد أدت السريانية مأثرة هامة أخرى إلى العربية هي ضبط الكتابة، على أن الحروف العربية نفسها قد أخذت من النبطية، وهي شقيقة السريانية.

أما الخط العربي فقد كان في أول أمره غفلاً من النقط التي تميز الآن بين الحروف، إذ كانت ترسم بشكل واحد. وقد كان خالياً من الحركات كذلك، فكانت جميع حروفه من الصوامت. على أنه في خلال القرن الأول للهجرة، أدخل على الخط نظام من النقط والحركات لعلها من أصل نبطي، استخدمت على نحو معين. فالنقطة الواحدة فوق الحرف رمزت إلى الفتحة، والنقطة تحت الحرف أشارت إلى الكسرة، وهذا تماماً ما كان السريان قد اصطلحوا عليه لوقت طويل. وحوالي أواخر هذا القرن، وتبعاً للنسق السريانية أيضاً، جعلت بدلاً من النقط خطوط قصيرة فوق الحرف وتحته، نشأت منها الفتحة والكسرة، كما تستخدمان اليوم.

ويتبين للسرياني فوراً أن الكثير من الألفاظ الأساسية السريانية بين المفردات الإسلامية. فالألفاظ العربية نظير فرقان «الأنفال ٢٩،٤٢»، آية «البقرة: ٣٧، آل عمران:٩»، كاهن «الطور: ٢٩، الحاقة: ٤٢»، سجود «البقرة: ١٩، القلم: ٤٢ : ٤٣»، سفر «الجمعة: ٥»، قسيس «المائدة: ٨٥» صلاح «البقرة: ٢،٤٠، النور: ٥٧»، زكاة(*) «البقرة: ٤٠، ٧٧، ١٠٤»، صلاة(**) وكثير سواها، إنما هي ألفاظ مستعارة من السريانية.(١)

وهكذا نرى مدى التداخل والمعاني للغتين العربية والسريانية في قائمة الديانتين الإسلامية والمسيحية على هذه المنطقة.

إن معظم الذين كتبوا عن القومية في العصر الحديث ينظرون الآن إلى ما يسمى بوحدة الجنس على أنه مجرد أسطورة. فليس هناك ما يمكن أن يسمى بالجنس العربي الخالص. فتلك القبائل التي فتحت الأمصار، وتلك الهجرات القبلية التي تمت بعد ذلك قد امتصت كلها

(*) ذكرت كلمة «الزكاة» في القرآن الكريم اثنتين وثلاثين مرة، منها سبع وعشرون مرة جاءت مقرونة بالصلاة.
عن: د. عبد الحميد براهيمي: العدالة الاجتماعية والتنمية في الاقتصاد الإسلامي ـــ مركز دراسات الوحدة العربية ـــ بيروت ١٩٩٧ ص١٥٢. ولفظة «زكاة» من أصل سرياني وهي أخص وأكثر تعييناً من لفظة صدقة التي تعتبر عملاً تبرعياً وتدل على العطاء والبذل بنوع خاص.
عن: د. فيليب حتي: تاريخ العرب ترجمة ادوار جرجي. د. جبرائيل جبور دار غندور ـــ بيروت ١٩٧٤ ص١٨٨.

(**) كلمة صلاة العربية مستعارة من السريانية وقد كانت تكتب بواو «الصلوة».

(١) د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين الجزء الثاني ترجمة د. كمال اليازجي دار الثقافة ـــ بيروت ١٩٨٣ ص١٤٦.

وهضمت في البيئات الجديدة، فلا نكاد نشهد الآن سمات أو ملامح جسمانية خاصة يتميز بها المواطن العربي.

ولسنا بحاجة إلى الإفاضة في الحديث عن العالمية في الإسلام والمسيحية، فنحن نشهد الآن قوميات متميزة في أوربا بين المسيحيين، كما نشهد بين العرب أصحاب القومية الواحدة، عدداً كبيراً ممن ظلوا على دينهم المسيحي ويؤمنون مع هذا بقوميتهم العربية إيماناً قوياً. وفي العالم الآن عشرات الملايين من المسلمين الذي لا يحسنون كلاماً عربياً، ولا يخطر في بالهم أنهم ينتمون إلى قومية عربية. في حين أن الوطن العربي الحديث يضم ملايين من المسيحيين ليس بينهم عربي واحد لا يحسن الخطاب باللسان العربي ويسيطر عليه.[1]

وقد روى محمد بن عمر المدائني في كتابه القلم والدواة قول الرسول لزيد بن ثابت: «أتحسن السريانية؟ قال: لا، قال: تعلمها، فتعلمها زيد في سبعة عشر يوماً»[2]

مهمة التاريخ
في الوقت الحاضر

يقول ليفي ستروس «كل شيء تاريخ، فما قبل البارحة تاريخ، وما قبل منذ دقيقة تاريخ»، إذن لم يعد التاريخ دراسة الماضي، بل هو علم الناس في الزمان. والتاريخ إن صح القول ظل الإنسانية، لا ينفصل عنها، ويستوعب الإيقاعات المتعددة، الخاصة والجماعية والنفسية والعاطفية والاقتصادية والفنية لتحتفظ بها مجففاً إياها تحت هذا الشكل المبسط المنقى المصطنع، الذي يفرضه زمن التقويم، فما دام ذلك كله كذلك فإننا لا نستطيع أن نستغني عن التاريخ.

وإذا كان العلم يتكون من حقائق قابلة دائماً لأن تعود فإن التاريخ يتكون من وقائع حدثت مرة واحدة وإلى الأبد، وما ذلك إلا لأن التاريخ يقوم على الزمان، وأول خاصية من خصائص الزمان عدم قابلية الإعادة لأن الصفة الرئيسة للزمان هي الاتجاه، والاتجاه يقتضي السير قدماً دون تراجع أو تخلف أو تكرار، ومهمة علم التاريخ أو التاريخ أن يقوم بوظيفة مضادة لفعل التاريخ ألا وهي أن يحاول أن يسترد ما كان في الزمان، لا ليتحقق فعلياً من جرى

(١) د. إبراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية ــ دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ص١٧٤.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى المجلد الأول بيروت ١٩٦٥ ص١٦٥.

الأحداث فهذا ما ليس في وسع أي كائن من كان أن يقوم به وحتى الله نفسه لا يجعل شيئاً قد كان يتكرر هو نفسه مرة أخرى كما أنه لا يجعل شيئاً كان ألا يكون قد كان.

إن مهمة التأريخ هي أن يحاول أن يستعيد في الذهن وبطريقة عقلية صرفة ما جرت عليه أحداث التاريخ في مجرى الزمان، محاولاً أن يتصور مجرى هذه الأحداث وكأنه يجري في اطراد موحه. ومن حيث إن هذا لا يمكن أن يتم إلا بنوع من التجربة الحية التي يحاول المرء فيها أن يعاني في نفسه ما قد كان حسبما كان، فإن التأريخ الحق هو ذلك الذي يستطيع أن يحيا تجارب الماضي، كما حدثت، في نوع من التخيل. ولكن هذا التخيل ليس تخيلاً مبتدعاً، إنما يجب أن يقوم على أساس ما خلقته الأحداث الماضية من آثار، ذلك أن ما كان لا يمكن أن يستعاد بحال. إنما يمكن أن يستعاد نظرياً بنوع من التركيب ابتداءً مما خلفه من وقائع يعمل الذهن فيها أحياناً والخيال المبتدع أحياناً أخرى، على أساس نوع من الوجدان هو ما يسميه اشبنجلر باسم «التوسم»، فبهذا التوسم تكون الصورة الماضية على خير وجه متيسر[1].

(١) عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي ـــ دار النهضة العربية ـــ القاهرة ١٩٦٣ ص١٨٣.

مدخل إلى قيام المسيحية

حين قامت الدعوة المسيحية انتشر الدين الجديد في فلسطين ــ سوريا، لِمَ كان بين المعتقد المسيحي وفلسفة هذه البلدان ومذاهبها من تجاوب وتقارب، ولاسيما في نزعتها الصوفية وتوحيهاها المسلكية وتطلعها إلى ما في الإنسان من عناصر روحية وقوى تميل به إلى الاتحاد بالله.

ودخلت المسيحية سوريا في القرن الأول الميلادي، إذ جاء القديس بطرس هامة رسل المسيح إلى مدينة إنطاكية التي تقع في شمال سوريا، وأسس فيها الكنيسة المسيحية سنة ٣٦، وكان أول أسقف عليها.

ومن المعروف أن المسيح لم يسلم كنيسته ووصاياه مدونة في كتاب. فبعد صعوده إلى السماء كتب بعض تلاميذه شيئاً منها إلى مؤمني بعض البلاد، ولكل منهم هدف في ما كتبه. وفي أواخر القرن الأول جمع مار اقليميس الروماني رسائل معلمه بولس(*) المتفرقة في كتاب واحد. وفي النصف الأول من القرن الثاني جمعت الكنيسة تلك الأسفار الصغيرة وعددها ٢٧ إلى كتاب واحد سمي كتاب العهد الجديد(**) الذي لا يزال موضوع إجلال واعتبار في الكنيسة. وقد كتب أول سفر منها وهو إنجيل متى بين سنتي ٣٩ــ٤٢ وآخر سفر وهو إنجيل يوحنا سنة ٩٨.

(*) من اليقين أن بولس الرسول هو واحد من أعظم قادة الفكر البشري، وهو أول من تمثل الوحي المسيحي على ضوء العقل والفلسفة. وقد ضمن الإلهام الإلهي في رسائل بولس صحة هذا التمثيل، وصدق فهمه، وبلاغة بلاغه. ولنا فيها على صحة رسالته وصدقها شهادة أفادته، وشهادة سيرته وجهاده الفذ، وإشادة الرسل الحواريين به.

(**) العهد الجديد الذي يعترف به المسيحيون وحدهم به يشمل الأناجيل الأربعة المقدسة، وسفر (أعمال الرسل) والرسائل ــ وهي التوجيهات التي وجهها الرسل، أي الحواريون إلى أتباعهم في مختلف الأقطار.

أما العهد الجديد من الكتاب المقدس فيشمل ثلاث مجموعات من الأسفار التي يعترف بها اليهود، وهي (التوراة) و(الأنبياء) و(الكتب).

وقد بقيت الفجوة عميقة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية حول قانونية تفسير التوراة، فقد اعتقد البروتستانت إنه يحق لكل فرد أن يقرأ التوراة ويفسرها كما يشاء، بينما رأت الكنيسة الكاثوليكية أن التوراة يجب ألا يقرأها إنسان سوى الكهنة.

وفي المائة الأولى لميلاد المسيح وقبل الحرب ودمار أورشليم كانت الأناجيل المؤتلفة الرسمية قد شاعت، وكان الإنجيل بحسب مرقس والإنجيل بحسب لوقا قد وضعا، بوحي الروح القدس باللغة اليونانية، والإنجيل بحسب متى باللغة الآرامية السريانية، لغة المسيح ولغة يهود فلسطين، فاتخذه النصارى اليهود إنجيلهم الخاص بهم، وعرف بـ «الإنجيل بحسب العبرانيين» نسبة إلى لغته أو «إنجيل النصارى(*)» نسبة إلى أهله، ووقفوا فيه بين الإيمان بالمسيح والعمل بالشريعة المقدسة.(١)

كما أن كتبة الأناجيل لم يدونوا تاريخ ميلاد المسيح، ولذا لا يمكننا تحديد ذلك بالتدقيق، فقد كتب اقليميس الاسكندري أن بعضهم كانوا يعتبرون اليوم الخامس والعشرين من شهر باكون (٢٠أيار) يوم ميلاد المسيح، غير أن آخرين كانوا يعتبرون اليوم الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين من شهر برمودا (١٩نيسان). ومع هذا فإن التاريخ الكنسي يخبرنا أن المسيحيين الشرقيين في القرنين الثالث والرابع خصصوا اليوم السادس من شهر كانون الثاني للاحتفال بعيد ميلاد المسيح وعماده معاً. وأول من أخذ باستعمال التاريخ المسيحي هو الراهب ديونيسيوس الصغير السكيثي سنة ٥٣١ ميلادية. كان هذا رئيس دير، وظن أن المسيح ولد في الخامس والعشرين من كانون الأول سنة ٧٥٣ من تأسيس مدينة رومية، فاستعملت هذا التاريخ مملكة انكلوساكون ثم ملكا فرنسا بين وشارلمان(٢).

اليهود وقيام المسيحية

هناك لغط كبير يعتور موطن اليهود وتاريخهم، فنحن لا نجد في النص القرآني ما يشير إلى أية علاقة بين بني إسرائيل وأرض فلسطين. ويوضح د. صليبي مفهوم «بني إسرائيل» ومفهوم «اليهود» و«اليهودية»، فبنو إسرائيل كانوا في زمانهم شعباً دان باليهودية. وقد كان لهم، بين القرن الحادي عشر والقرن السادس قبل الميلاد، مُلكاً في بلاد السراة «أي في جنوب الحجاز وفي المنطقة المعروفة اليوم بعسير». وقد زال هذا الشعب من الوجود بزوال مُلكه، و لم يعد له أثر بعد أن انحلت عناصره وامتزجت بشعوب أخرى في شبه الجزيرة العربية وفي غير شبه الجزيرة العربية.

(*) النصارى من النصرانية، من الألفاظ المعربة التي تطلق على أتباع المسيح من الأمميين، وقيل إنها من أصل سرياني هو «نصرويو nasroyo» و«نصرايا nasraya».

(١) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٦٥/٥١ آذار ص١٨٩ الأستاذ الحداد: النصارى في القرآن الجزء الثالث.

(٢) البطريرك مار أغناطيوس يعقوب الثالث، تاريخ الكنيسة والسريانية الإنطاكية الجزء الأول بيروت ص٩٧ ١٩٥٣.

وهذا تماماً ما حدث لغيره من الشعوب البائدة. أما اليهودية، فهي ديانة توحيدية وضعت أسسها أصلاً على أيدي أنبياء من بني إسرائيل، بناء على شريعة أو «توراة» موسى. وقد كان بنو إسرائيل أول من دان باليهودية، لكنهم لم يكونوا وحدهم اليهود حتى في زمانهم. والديانة اليهودية التي ربما انتشرت على أيديهم أول الأمر استمرت في الانتشار بعد زوالهم وانقراضهم كشعب. وما زالت هذه الديانة منتشرة في معظم أرجاء العالم بين شعوب مختلفة لا تمت إلى بني إسرائيل بصلة لغة وعرقاً، مع العلم بأن هناك عناصر من بني إسرائيل القدامى لابد أنها انصهرت في المجتمعات اليهودية.التي انتظمت في مختلف الأقطار بعد زوال مُلك إسرائيل حيث قام. ولابد أن هناك عناصر أكثر من شعب إسرائيل البائد انصهرت في مجتمعات عربية، يمنية أو عراقية أو شامية أو مصرية، وتحولت بمرور الزمن إلى المسيحية فالإسلام. ومن البديهي أن العرق بحد ذاته لا يموت، إنما الذي يموت هو المجتمع والانتماء والاسم، وذلك عن طريق التحول من واقع تاريخي إلى واقع آخر. والادعاء السائد بين يهود العالم بأنهم من سلالة بني إسرائيل هو ادعاء شعري لا يقوم على أي أساس من التاريخ.[1]

وإذا عدنا للتاريخ ــ وتاريخ هذه المنطقة بالذات ــ نرى الكثير من الحوادث التاريخية التي قلبت المفاهيم العرضية للعالم. لقد قام العبرانيون بتأسيس دولتهم في فلسطين على يد شخص يدعى شاؤول في حوالي سنة ١٠٤٠ق.م، ثم انقسمت دولتهم إلى دولتين في سنة ٩٣٢ ق.م إحداهما تدعى يهوذا في الجنوب والدولة الأخرى تدعى إسرائيل في الشمال. وفي سنة ٧٢٢ ق.م اكتسح سرجون الثاني الآشوري السامرة عاصمة إسرائيل. وبعد عشرين سنة دمر سنحاريب يهوذا. وفي سنة ٥٩٧ ق.م فتح نبوخذ نصر أورشليم. وفي سنة ٥٨٦ ق.م أخذ الشعب العبراني إلى النفي عن بابل. وفي سنة ٥٢٠ ق.م رجع بعضهم إلى أورشليم. ومن سنة ٣٣٢ ق.م حتى سنة ١٨٦ ق.م عاشوا تحت حكم اليونان كإقليم في إمبراطورية اسكندر الكبير. وما بين سنة ١٨٦ وسنة ٦٣ ق.م قام المكابيون بمجهودات جبارة لخلع نير اليونان عنهم حتى سنة ٦٣ ق.م عندما احتل الرومان البلاد وبقوا فيها حتى سنة ١٣٥م، وفي سنة ٧٠ م دمر الرومان أورشليم تدميراً تاماً وتشتت العبرانيون في جميع أقطار العالم القديم. وفي فترة الرومان الأخيرة وقع ميلاد المسيح حوالي ٤ ق.م وعاش حتى سنة ٣٠ م.

وعندما رجع اليهود من السبي من بابل في سنة ٥٣٧ ق.م لم يكن الجيل الصغير منهم يتكلم سوى السريانية، وعندما كان اللاويون يقرؤون التوراة كان لزاماً عليهم أن يصيغوا

(١) د. كمال صليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية ــ بيروت ١٩٨٥ ص١٢.

العبارات باللغة السريانية لكي يفهمها الجمهور. وبعد أن كتبت دعيت بالترجوم الله «تلفظ الجيم مصرية» أي الترجمة. واحتفظ السامريون بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة باللغة الآرامية حتى اليوم[1] وهكذا نطق المسيح باللغة الآرامية السريانية.

ولفظ التوراة يطلق على الاستعمال، ومن باب تسمية الكل باسم بعضه، على جميع أسفار العهد القديم، بل قد يطلق، بين العامة من المسيحيين على الكتاب المقدس كله، في كلا عهديه القديم والجديد.

إن العهدين كلاً منهما عالم ديني مستقل عن الآخر: عالم الدين اليهودي، وعالم الدين المسيحي. ولكنهما في الحقيقة، مترابطان ترابطاً موضوعياً وروحياً صميماً، وثيقاً، بفكرة مركزية واحدة تنمو وتتوضح وتسود في كلا العهدين، ألا وهي فكرة المسيح الموعود[*] مخلص الجنس البشري بأجمعه، فالعهد القديم يرسم تنامي تلك الفكرة تدريجاً مع تنامي الوحي الإلهي عبر القرون، والعهد الجديد يبين، في كمال الوحي، تحقيق تلك الفكرة في شخص المسيح وعمله الفدائي. قال يسوع لليهود: «أنتم تبحثون في الكتب.. وهي تشهد لي.. فلو كنتم تصدّقون موسى لصدّقتموني لأنه كتب عني» فالعهد الجديد، على حسب تعبير الآباء الأولين في المسيحية «مُضمَر في العهد القديم، والعهد القديم ظاهر في العهد الجديد»[2].

والعهد القديم مشترك بين اليهود والمسيحيين، ولكن مع بعض الفوارق. فاليهود، وبعدهم البروتستانت، لا يعترفون إلا بالكتب الموضوعة بالعبرية، وهي أربعة. وأما سائر المسيحيين فإنهم يضيفون ستة كتب وضعت باليونانية. إن البروتستانت يطلقون على هذه الكتب صفة «المنتحلة»، وأما الباقون فإنهم يلقبونها بـ «القانونية الثانية»، أي أنها دخلت ثانياً في القانون، وهو قاعدة الإيمان[3].

---

(١) مجلة الحكمة ــ القدس العدد ٢ــ٣ سنة ١٩٩٧ التوراة عبر التاريخ، ترجمة يوسف إبراهيم جبرا ص٤٠.

(*) يقول فيليب حتي.. يصعب تقرير ما أخذته الشيعة في أول عهدها من مصادر نصرانية، ولكن الاعتقاد بالمهدي الذي نشأ فيما بعد وأصبح يقوم على انتظار مخلص يكون ظهوره فاتحة عصر حرية وفلاح هو بلا ريب صدى للأفكار المتعلقة بمجيء المسيح الثاني.

(٢) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٧١/٥٦ الأب جورج فاخوري: التوراة في مصطرع الأهواء ص٧٤٧.

(٣) الأب اسطفان شربتيه: دليل قراءة الكتاب المقدس ترجمة الأب صبحي حموي دار المشرق ــ بيروت ١٩٨٣ ص٦.

نشأة المسيحية

نشأت المسيحية في ظل الحكم الروماني، وعرف من حكام ذلك الزمن جوليا دمنه التي تزوجت من القيصر سبتيمس سويروس، وأنجبا القيصر اسكندر سويروس. وحكم القيصرة الذين نشأوا من هذه السلالة الحمصية الآرامية [1] المملكة الرومانية ٤٢ سنة. وإذا استثنينا أولهم سبتيمس سويروس الذي اضطهد المسيحية من سنة ٢٠٢ حتى هلاكه الذي حل سنة ٢١١ نرى خلفاءه يحدبون عليها ويحبذونها إن لم نقل إن بعضهم قد اعتنقها.

وظهر اسكندر سويروس أقل الملوك تمسكاً بالوثنية وعوائدها، وقد أحسن إلى المؤمنين[2] وفضل دينهم على جميع الأديان، وكتب على باب قصره الآية الذهبية الواردة في الإنجيل «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم».[3] وقتل في ٢٣٥ بعد أن جلس على كرسي العرش ١٣ سنة، وبموته انتهى حكم السلالة السورية الآرية[4].

وخلفه في العرش أحد قواده مكسيميانس الذي عكر صفاء الكنيسة مدة ملكه. ولما اغتيل في آذار سنة ٢٣٨ تمتع المؤمنون بالسلام مدة من الزمن، ولا سيما في عهد القيصر فيليب «العربي» ٢٤٤ــ ٢٤٩ وهو من بصرى، ويرى أحد المصادر أنه كان مسيحياً[5]، ولا عجب في ذلك لأن قبائل كثيرة من العرب في بلاد باشان أي حوران(*) العربية اعتنقت المسيحية في القرن الثاني على عهد ملكهم عمر الأول الذي بنى في عاصمة بصرى عدة كنائس. وقد أيد مسيحية فيليب أوسابيوس القيصري ومار أبرونيميس. وحين تبوأ عرش المملكة أصدر مرسوماً يقضي أن يمارس المسيحيون شعائر دينهم ويشيدوا الكنائس بحرية مطلقة، إذ كانوا قبل ذلك يمارسون عبادتهم غالباً في المغاور والدياميس خوفاً من المضطهدين في تلك الأزمنة.

---

(١) د. يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام ــ طباعة بيروت مجلد أول ص١٣١ــ١٣٩.

(٢) البطريرك ما أغناطيوس أفرام الأول برصوم: الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة طبعة حمص ص٢٦١.

(٣) د. يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام ــ مرجع سابق ص١٣٨.

(٤) البطريرك ما أغناطيوس يعقوب الثالث: تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية، بيروت ١٩٣٥ ص١٦٣ الجزء الأول.

(٥) البطريرك مارأغناطيوس يعقوب الثالث: تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية مرجع سابق ص١٦٤.

(*) حوران كلمة آرامية مشتقة من كلمة «حور» وحوريم، بمعنى كهف ومغر «وسكان حوران الأصليون آراميون، وقد دعيت بلادهم عوص نسبة إلى عوص بن آرام، وكان هؤلاء الآراميون يعرفون بالرفائيين أي الجبابرة، كما يصفهم لنا الكتاب المقدس في تثنية الاشتراع)).

والملاحظ أن التجاذب بين السلطة والكنيسة المسيحية كان ينتقل من قيصر إلى قيصر ومن حاكم إلى آخر. فمثلاً في عام ٢٧٥ أصدر القيصر أوريليان ٢٧٠ ــ ٢٧٥ مرسوماً يقضي باضطهاد المسيحيين، وهو الاضطهاد التاسع، فيما أصدر مكسيميان غاليريوس عام ٢٩٥ أمراً من ديوقليطيان يقضي بإكراه الجنود المسيحيين على تقديم الذبائح للأوثان. وتفنن الطغاة في تعذيبهم، فكانوا في سوريا يشوونهم على المقالي، وفي بلاد ما بين النهرين يشنقون بعضهم منكسي الرؤوس[١]. وظل هذا الاضطهاد في الشرق حتى تنصر قسطنطين الكبير وانتصر على مكسيميان دايا سنة ٣١٣ فنفذ منشور ميلان في المملكة كلها.

وكان معظم السكان في ضواحي إنطاكية في القرن الرابع يتكلمون السريانية[٢]، ويذكر على سبيل المثال يوحنا الذهبي الفم، في عظة عن الشهداء، أشار إلى أنهم يتكلمون لغة بربرية، أي غير يونانية، كما قال في العظة ١٩ إلى أهل إنطاكية أنه «يتأسف لعدم معرفته للغة الألوف من سكان القرى الذين تقاطروا إلى إنطاكية لحضور الحفلات الدينية»[٣].

ومر على إنطاكية ثلاث لغات بحيث إننا لا نستطيع عزل ما هو يوناني عما هو سرياني في تراث الأرثوذكسية، وما يقال في السريانية يقال أيضاً في اليونانية. فاليونانية طبعت الروح والفكر والوجدان في البلاد السورية بطابع لا يمحى. السريانية تهلنت واليونانية تسرينت، والاثنان في الكيان الإنطاكي، تعربا.

والتقطت المسيحية أنفاسها بعد أن سمح لها بممارسة شعائرها علنية فأخذ رعاتها بلم شعث المؤمنين وإصلاح ما طرأ على قوانين الكنيسة من الفساد إبان الاضطهاد العاشر العنيف، وذلك بما يعقدون من المجامع الإقليمية، وكانت أبرشية إنطاكية السباقة في هذا المضمار. فقد عقد مار فيطاليوس الأنطاكي سنة ٣١٤ مجمعين في أنقرة وقيصرية الجديدة، حضرها أساقفة من ولايات غلاطية وكيليكيا والنبطس وبيثونيا وليقونية وفريجية وبيسيدية وبمفيلية وكبدوكيا وأرمينية الكبرى وسوريا وفلسطين.

كانت أنقرة عاصمة غلاطية فحضر مجمعها سبعة عشر أسقفاً برئاسة فيطاليوس، وسنوا خمسة وعشرين قانوناً في نظام البيعة، وكيفية قبول توبة الساقطين إبان الاضطهاد، وزواج المؤمنين وغير ذلك[٤].

---

(١) البطريرك مار أغناطيوس يعقوب الثالث: تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية مرجع سابق ص١٧٣.
(٢) البطريرك مار أغناطيوس يعقوب الثالث: تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية مرجع سابق ص١٨٤.
(٣) البطريرك مار أغناطيوس يعقوب الثالث: تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية مرجع سابق ص١٨٥.
(٤) البطريرك مار أغناطيوس يعقوب الثالث: تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية مرجع سابق ص١٨٧.

وفي هذا الوقت بدأت المجامع تنحو منحى تقسيم المسيحية ـــ إذا صح القول ـــ وأخذت الطوائف تظهر مخلفة انقسامات وتيارات جعلت من المسيحية طوائف، جرها في مرحلة لاحقة إلى بيزنطة وروما مما أفقد المسيحية الشرقية «سوريتها» ـــ نسبة إلى سوريا إذا صح التعبير ـــ وظهرت النسطورية حتى قال رجل دين حديثاً «السريان موطنهم الأول هو سوريا فيما «الكلدان يشعرون أن العراق بلدهم الأول وانتماءهم الأساسي هو إلى العراق»،[1] لهذا لا يساوم السريان منذ آلاف السنين بمسيحيتهم ووطنيتهم.

وإلى حين عقد مجمع خلقيدونية عام ٤٥١ سادت الكنائس المعروفة باسم «المونوفيزسم ***monophysism***» ـــ وهي كلمة يونانية مركبة من «مونوس» أي واحد ومن «فيزيس» أي طبيعة، وتعني الآن «الكنائس الشرقية الأرثوذكسية القديمة» ـــ المنطقة تجاه كنيسة بيزنطة. وفي هذا المجمع ظهر الخلاف بين مجموعة الكنائس الشرقية الأرثوذكسية القديمة، وكنائس الأرثوذكس فالكاثوليك والبروتستانت لاحقاً وشكلت هذه المجموعة أصحاب المجمع الخلقيدوني، والخلاف بين المجموعتين هو اختلاف لفظي في التعبير عن عقيدة واحدة مشتركة فيما بينهم بشأن اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص واحد، شخص المسيح.

(١) صحيفة الحياة ـــ لندن ١٩٩٣/٤/٢٦ العدد ١٢٨٣٦ من تصريح مطران الكلدان في أمريكا إبراهيم إبراهيم.

المسلمون والمسيحيون
ونسيج الوطن الواحد

اللحمة التي عاشها المسلمون والمسيحيون في سوريا الطبيعية لم تأت عن عبث، فهما من أصول واحدة ورسالة واحدة، كان المسيحي الأقدم هنا في هذه البلاد فأحب جميع الناس على السواء، وأحب جميع البلدان على غير تفرقة، وأحب الوطن الذي ولد فيه فأحسن له الخدمة، ورعى شرائعه، وغمر أهله بالإحسان، وعلم الرسل بعد معلمهم ملحّين في طلب القيام بشتى الواجبات والسلطات حتى وإن كانت وثنية. وعلى هذا النحو ذهب أئمة المسيحية ومعلموها ولاهوتيوها وأحبارها العظام منذ البدء حتى اليوم، وليس بالعسير على المكابر أن يطلع بنفسه على تعليم النصرانية في شتى المجالات.

الدين المسيحي ما أمر قط بتذرع القوة المادية أو المعنوية لمناهضة أهل الأديان الأخرى، ولا لإخضاعهم لإيمانه مهما كان سامياً في يقينه، وكل ما أمر به معتنقيه أن يكونوا في الدنيا نوراً وملحاً، أي مشعلاً متوقداً يهدي إلى كل ما هو من نطاق النظام، وغراراً صالحاً في كل ما يمت من قريب أو بعيد إلى خير المجتمع، وحلية حية مخصابة في صلب الأمة تتضافر في تماسك عجيب مع جميع الخلايا، مهما كان عنصر هذه الخلايا ونزعتها للذود عن الكرامة والسيادة وحدود الوطن حتى وإن كان المعتدي على الوطن هو من المسيحيين أنفسهم.

وقد انتصر المسيحيون للإسلام يوم خرج من مهده في قلب الجزيرة العربية، وآزروه في نضاله ضد الروم المسيحيين، واحتضنوه في طفولته وساندوه في ترعرعه، سواء كان في مجالات السياسة والحكم والثقافة والفن، أم في ميادين الاقتصاد والعمران والتمدن. وظل المسيحيون على ذلك في جميع مراحله وأدواره، ثم كانوا أهل الطليعة في تحرير الأقطار العربية من نير الاستعمار

التركي ومن سيطرة الفرنسيين والإنكليز، وكانوا ولا يزالون من أخصب العناصر في نهضة الأقطار العربية على كل صعيد. أما فضلهم على حفظ اللغة العربية(*) والطباعة العربية(**) والنهوض بها إلى مستوى كبريات اللغات فلا يمكن إغفاله.

وبفضل مسيحيو لبنان في عصر النهضة العربية أعيد اكتشاف تراث العرب الأدبي لدراسته من جديد، كما انفتحت أمام الصحافة والأدب طريق التطور والنمو(***) المسيحي العربي في وطنه كان ولا يزال، على ما يشهد به الواقع، من أخلص الناس خدمة وبذلاً، ومن أقوم الناس ضميراً ووجداناً، ومن أصفى الناس انقياداً للنظام، وأبعد الناس عن الفوضى، وأعرف الناس بما عليه نحو المجموع والفرد ونحو السلطة والقانون.

إننا نقرأ الكثير من الآيات التي تشيد بالنصرانية وأهلها وبالإنجيل وأصحابه، وتشهد أن الإسلام ما كان رسالة مستقلة عما تقدمها في التوراة والإنجيل، وإنما جاءت «تصديقاً وتفصيلاً» لرسالة الكتاب(****)، وشاهدة عليها(*****)، وواحدة معها(******).

ولقد عاش المسيحيون والمسلمون معاً نتيجة الثمرة الطبيعية لانتسابهم إلى المسيح الذي هو رمز الحب والتسامح بين الناس سواء منهم المحبون والكارهون، وإلى الرسول محمد الذي

(*) الكتاب العربي الأول الذي ظهر إلى الوجود بواسطة الطباعة هو قسم من الأورولوجيون «كتاب صلاة السواعي» الحاوي صلوات الساعات القانونية مع مصوريات الساعات والتبكا، وقد طبع في بلدة فانو بإيطاليا سنة ١٥١٤. وقد استدعي لذلك من مدينة البندقية الطباع غريغوريو دي غريغوريس، الذي قدمه للبابا لاون العاشر. وهو يقع في ٢٤٠ صفحة غير مرقومة بقطع الثمن، وفي كل صفحة ١٢ سطراً. والنص العربي المستخدم على الأقل في المزامير هو نص ترجمة عبد الله بن الفضل ×

× للتوسع في ذلك، الأب يوسف نصر الله: مطابع الملكيين مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٤٨/٣٤ تموز ص٤٣٧.

(**) الشماس عبد الله الزاخم «١٦٨٤ــ١٧٤٨» أنشأ أول مطبعة عربية «من والدين أصلهما من حماة ونزحا إلى حلب» نشرت الكتب المفيدة في سورية. وإذا كانت مطبعة دير قزحيا سبقت المطبعة التي أنشأها الزاخم فإنها لم تطبع بالعربية إلا كتاباً واحداً هو كتاب المزامير وطبعه كان عن يد أحد الإفرنجة المدعو بسكالي كما هو مدون في المزامير نفسه ××.

×× للتوسع في ذلك مجلة المشرق ــ بيروت سنة ١٩٠٠ ص٢٥٥.

وقد وصف فؤاد أفرام البستاني الشماس عبد الله الزاخم بـ «العالم العامل والفيلسوف الكامل، فريد عصره، ووحيد مصره، المعتصم بالإيمان الطاهر» ×××.

××× مجلة المسرة ــ حريصا السنة ٢٤ /١٩٤٨ تموز ص٣٩٧.

(***) د. كمال صليبي ــ تاريخ لبنان الحديث ــ دار النهار، بيروت ١٩٨٤ الطبعة السادسة ص١٨٦.

(****) أنعام ١١٤.

(*****) مائدة ٥١.

(******) بقرة ١٣٦، ٢٨٥، آل عمران ٨٤، نساء١٦٣، توبة ١١٢.

يقول الكتاب الذي أنزل عليه: «ولا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون». والتعايش بينهما بديهة من البساطة بحيث لا تتطلب إرادة بحث ولا تقليب رأي للوصول إلى اتفاق عليها أو الالتقاء حولها، وهو كذلك حقيقة واقعة تشكل الطبيعة الصحيحة التلقائية لحياتنا الاجتماعية كما يشكل الجريان طبيعة الماء، والهبوب طبيعة الهواء.

«وهذه الجدلية بين الإسلام والمسيحية اتخذت أشكالاً مختلفة، فالأخطل الشاعر كان يفاخر بمسيحيته في شعره، وخالد القسري كان يدعى «ابن النصرانية»، لكن أهم مفصل في هذه الجدلية كان العلاقة بين المسلمين الفاتحين لسورية وبين المسيحيين السريان السكان الأصليين حيث انتصف الخليفة «عمر بن الخطاب» للمسيحيين السريان من الاضطهاد المذهبي الذي كانوا يعانون منه على يد المسيحيين أنفسهم، مما دعا السريان إلى إطلاق لقب «الفاروق» أي المخلص عليه الذي اشتهر به فيما بعد، أما موقفه من المسيحيين في القدس فمعروف للجميع.

وهكذا دخل المسيحيون في النسيج العربي وصاروا جزءاً منه لهم ما لهم وعليهم ما عليهم(*)، لقد لعبوا كثيراً من الأدوار الوطنية التي كانت موضع دهشة واستغراب الصليبيين، وربما أن النهضة الفكرية والعلمية التي جرت في لبنان بدءاً من القرن الثامن عشر على يد المسيحيين تمثل أحد أهم المواقف»[1].

دفائن في التاريخ
بين المسيحية والإسلام

هناك دفائن في التاريخ المشترك بين المسيحية والإسلام، صور مشرقة ومواقف حين نقرأها تهزنا هزاً: من حسن العلاقة، من عمق التعاون، حتى أمست الأديرة في التاريخ معاقل للمسلمين، حتى غدا المسيحيون في الصفوف الأمامية من قتال المسلمين، حتى غدا المسلمون أقرب للمسيحيين. أجل، مواقف وصور مشرقة لا يمكن أن يأتي التاريخ بمثلها ولا المستقبل.

(*) هناك حادثة جرت بين الرئيس القذافي والسفير البابوي في أفريقيا الشمالية المطران ثابت، الذي التقاه وهو يقدم أوراق اعتماده ففوجئ القذافي بأن المطران يحدثه اللغة العربية. فسأله «الأخ عربي»؟ أجابه المطران «نعم» فقال له معمر القذافي «مسلم» أجابه المطران ثابت ضاحكاً «كيف أكون مسلماً وأنا سفير بابوي أقدم أوراق اعتمادي؟» فما كان من القذافي إلا أن سأله ثانية «إذاً أنت لست عربياً؟» فأجابه المطران ثابت «بل أنا عربي».
من مقابلة مع الأباتي فرنسوا عيد ملحق صحيفة النهار ـــ نهار الشباب ـــ بيروت ١٩/١٠/١٩٩٩ ص٣٣.

(١) برهان بخاري: أهلاً بالبابا شنوده صحيفة تشرين ـــ دمشق العدد ٦٨٠٤/ ٧/٥/١٩٩٧ ص١٢.

وحبذا لو تتوفر لجان على نبش هذه الدفائن ليتعلم الناس وتتعلم الأجيال كيف تتحاب وكيف تؤمن بالله عن جدارة واطمئنان بدل أن تنفث في روحها السموم والأحقاد، وكل منا يتصور أنه بعمق دينه أو يقترب إلى الله أكثر، وجهل هؤلاء أن الله لا يعبد إلا بالحب لأن الله محبة ونور.

وحسبي أن أذكر هنا لا خليفة عثمانياً ولا قائداً فرنجياً، بل أذكر القائد عمر بن الخطاب يوم كان يمشي من عاصمة ملكه في الجزيرة العربية إلى بيت المقدس ومعه خادمه، ومعهما ناقة. وفي الطريق ينزل عمر عن الناقة ويُركب خادمه، فيقول له: كيف هذا، يا أمير المؤمنين؟! فيقول هذا هو العدل: اركب ساعة وتقود الناقة، وتركب ساعة وأقودها. فلما وصلا إلى أبواب بيت المقدس، وكان الأحبار هناك قد رفضوا تسليم المدينة إلا للخليفة بنفسه حتى لا تكون هنالك فتوحات جيوش بل فتوحات محبة وعقائد، فلما دخل عمر بيت المقدس كانت نوبته هو أن يقود الناقة ونوبة العبد أن يكون راكباً. فأقبل الأحبار والناس على راكب الناقة يرحبون بالخليفة: فابتسم وقال: هذا هو الخليفة. فحملوه وأدخلوه إلى المدينة المقدسة، ولما دخل الكنيسة وحان وقت الصلاة أراد أن يصلي، فخرج منها ليصلي في الخارج. فسأله الأحبار: ألا تصح الصلاة في الكنيسة؟ قال: «بلى! إنها المعابد التي ذكرت في القرآن. ولو دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت مساجد وبيَع وصلوات وكنائس، كلها كانت تهدم ويُذكر فيها اسم الله كثيراً، ولكني أريد أن أصلي خارج الكنيسة حتى لا يأتي المسلمون من بعدي ويقولون: لقد صلى خليفتنا فيها فأصبحت من حقنا فيضعون يدهم عليها». فكان هذا اللقاء وهذا الموقف خير مبرر على حسن النية.

وعندما يتعاون المسلمون والمسيحيون فليس في قلب أحد منهم أن يضع يده على دين الآخر، ولا على عقيدته: فلا المسلم يبغي أن يضع يده على كنيسة المسيحي، ولا المسيحي يبغي أن يضع يده على مسجد المسلم، بل كلهم يعبدون الله حتى تأتي الساعة التي نجتمع فيها على رضا الله ومرضاته[1].

ولعل مثل هذه الحوادث التي لا تنسى هي التي أبقت صلة الرحم قائمة بين المسيحيين والمسلمين، ونقرأ في التاريخ عن مدينة القدس حين وصلها الصليبيون بعد مئات السنين كيف أنهم لم يوفروا أحداً من شرهم «وحتى إخوانهم في الدين أنفسهم لم يوفروهم، وكان أول ما اتخذوه من تدابير أنهم طردوا من كنيسة القيامة جميع الكهنة من الطقس الشرقي الذين كانوا يقيمون القداديس معاً لمذهب كان جميع الفاتحين قد احترموه حتى ذلك الحين. وإذ ذهل وجهاء

(١) الشيخ طه الصابونجي: خواطر في الحوار بين المسيحية والإسلام مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٦٩/٥٥ شباط ص١٣٢.

الطوائف المسيحية الشرقية أمام هذا القدر من التعصب فقد عزموا على المقاومة، ورفضوا أن يكشفوا للمحتل عن المكان الذي خبأوا فيه الصليب الحقيقي الذي مات عليه المسيح. والتفاني الديني بصدد هذه الذخيرة مقترن في نظر هؤلاء الناس بالعزة القومية. أليسوا في الواقع مواطني الناصري؟ ولكن المحتاجين لا يَدَّعون أي مجال للتأثر. وإذ قبضوا على الكهنة الموجلين بحراسة الصليب وأخضعوهم لتعذيب فقد تمكنوا من انتزاع سرهم والحصول من مسيحيي المدينة المقدسة بالقوة على أغلى ما يملكون من ذخائر»[1]

العائلة الروحية المشتركة

ينظر الإسلام إلى المسيحية نظرة خاصة، فهو يعتبر أن هناك عائلة روحية مشتركة، عائلة الديانات الكتابية فيفصلها عن سائر الديانات الأرضية ويتخذ موقفاً مشتركاً بينه وبين أهل الكتاب في وجه الشِّرك والوثنية والإلحاد، ذلك لأن الوثنيين والملحدين لا يقومون خطراً على الإسلام فحسب، بل هم خطر على الإنسان، وعلى عقل الإنسان. لذلك اعتبر الإسلام العلاقة القائمة بينه وبين الديانات الكتابية علاقة ذات امتياز خاص.

وحينما يكون المسيحي الأول هو مضرب المثل للمسلمين في جهادهم ونصرتهم لربهم، تنعقد الصلة وثيقة بين المسلمين والمسيحيين وخصوصاً عندما يأتي القرآن فيبدأ بسيرة السيد المسيح وأمه البتول بعدما يتحدث عن رسله الحواريين. وكلنا نعلم الآيات البينات التي تمجد السيد المسيح في القرآن الكريم وتُعليه عن طبيعة البشر، بل لتجعله نموذجاً فريداً في الروحية، بل لتجعله كلمة الله وروحاً منه. والسيدة مريم، إنها في القرآن فوق وأعلى ما كتب عنها في كل الديانات، وسمت في القرآن حتى قال فيها: «يا مريم، أن الله اصطفاك وطهرك، واصطفاك على نساء العالمين». فإذا كانت هي المصطفاة، وهي المطهّرة، وهي المصطفاة على نساء الأرض كلها، فأي تكريم وأي تقديس يمكن أن تبلغه إنسانة في الوجود كله! ولا عجب، فإنها السيدة التي تكتب الآية المتعلقة بها على كل منابر المسلمين أو محاربيهم. فإذا دخلنا المساجد قرأنا الآية القرآنية التي تقول في السيدة: «كلما دخل عليها زخريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال: يا مريم، أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله..» فقصة السيدة مريم في محرابها منقوشة في كل مساجد المسلمين ومحاربيهم إلى الوقت الحاضر.

---

(١) أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الفارابي بيروت ١٩٨٩ ص٧٨.

إننا نقرأ في القرآن قول الله في النخبة الصفوة الذين اختارهم الله في تلك الحقبة من التاريخ «وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة». وفي ذلك يقول الشيخ طه الصابونجي: هذه العلائق والوشائج المترابطة التي نقرأها نحن في قرآننا، ونعبد بها، ونتلوها في صلواتنا، ونتحادث فيها ونتهامس، بل من شريعتنا أن الذي ينال عقيدة المسيح أو شخص المسيح أو أم المسيح لا يكون مذنباً بل يكون كافراً. ومن أجل هذه الروابط بين العقيدة المسيحية والعقيدة الإسلامية، وبين أشخاص المسيحيين وشخوص المسلمين فعندما يدعونا القرآن للمحاورة مع أخوتنا المسيحيين لا يترك لنا مجالاً لأسلوب الحوار، ولا يسمح لنا مطلقاً أن نحاورهم على هوانا، بل يضع القاعدة الخاصة بهم فيقول: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن»، فليس بالحسنى فقط. فلو قال: «جادلوهم بالحسنى» لكان موقفاً رائعاً، ولكنه الموقف الأروع عندما يختصهم بأفضل التفضيل، بعد النهي «لا تجادلوا» فيحدد ويقصر فيقول: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن»[1]

إن القرآن يذكر السيد المسيح بما يحتل به الذروة في نطاق الرسالة، ويذكر مريم أمه بما يُحلها قمة الذروة في نطاق الكرامة والكمال النسوي على وجه الإطلاق، ويذكر نفراً، ممن يذكرهم الإنجيل، بأسمائهم كيحيى «يوحنا» وزكريا.

وشخصية السيد المسيح وألوهيته بين المسلمين والمسيحيين هي مسألة مقررة، فالحديث فيها لا يمكن أن يؤذي المسيحيين الذي ألفوا تصور المسلمين للسيد المسيح.. فهم يجلونه ويباركونه، ويرتفعون بمقام السيدة مريم العذراء مكاناً عالياً، ولا يرون حرجاً في أن يرددوا، في أن السيد المسيح «أكثر من إنسان، وأكثر من نبي».

لقد أوصى الرسول العربي المسلمين خيراً بالمسيحيين: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون». وأيضاً: «ولتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنّا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا، وإنهم لا يستكبرون».

---

(١) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٦٨/٥٤ ك١ ص٨٠٨.

يكبر الوطن بأبنائه

إن أبناء سوريا ورثة ماض مجيد لا يعود إلى جاهلية العرب أو القرن السابع فقط، بل إلى ثلاثة أو أربعة آلاف سنة قبل المسيح. منا الوليد، ومنا الرشيد، ولكن منا أيضاً ملوك ماري وكركميش وأرباد ولوغاريت وأرواد وحلب وحماة ودمشق، ومنا أيضاً قديسون وشهداء عظام. وفي هذا نحن المسلمين والمسيحيين سواسية: فكم من جذور مسيحية لها فروع مسلمة! المسيحيون في سوريا هم من سلالة القبائل العربية القديمة المتنصرة منذ قبل الإسلام، ومن سلالات السكان الأولين من آراميين وفينيقيين، ومن دخل عليهم من الروم منذ فتح الاسكندر وطوال العهد الروماني، ومن تسرّب إليهم في العصور التوالي من أرمن وفرنجة واستقروا في البلاد واندمجوا فيها. والمسلمون في سوريا هم أيضاً من سلالة القبائل العربية التي أسلمت ومن دخل في الإسلام من السكان السوريين الأولين من سريان وفينيقيين، ومن استقر في هذه البلاد في العصور المتأخرة من أكراد وشركس.

المسلمون والمسيحيون عنصر واحد، نتيجة أعراق متعددة، وقومية واحدة، إنهم عرب سوريون صنعا هذه البلاد. والمسيحيون ليسوا غرباء عن العروبة الأصيلة، ولا عن سوريا إذ فيها نبتت وترعرعت، وهم ليسوا غرباء في عقر دارهم. وما كان ليكون المسلم مواطناً من الدرجة الأولى والمسيحي مواطناً من الدرجة الثانية. ولما كان الدين لله والوطن للجميع فيجب أن تكون الفرص متساوية للجميع بدون تفرقة ولا إيثار.

وقد كان شعار الجميع في سوريا ما بعد استقلال هذه البلاد: كن مع الحق ولا تنصر أخاك ظالماً كان أم مظلوماً. لهذا عاشت سوريا بعد الاستقلال في جو رائده الوحدة الوطنية والترفع عن الطائفية، ولأن صدرت أصوات هنا وهناك تسحب البساط إلى جانبها في بعض المشاكل العالقة، فإن الحوار الديمقراطي كان هو الذي يسود.

وعلى سبيل المثال كان العمل جارياً في عام ١٩٥٠ لإعداد دستور جديد لسوريا حيث خرجت بعض الأصوات تقول إنه يجب أن يكون دين الدولة الإسلام، وهو ما حفز الطوائف المسيحية على التحفظ في هذا الموضوع، ومن ذلك ما كتبه أحد رجال الدين المسيحيين:

لقد كان بعض المدعين بالوطنية يتهموننا بالأمس نحن المسيحيين بأننا نتذرع بكلمة «أقلية» لنفسح بها مجالاً لتدخل الأجنبي، فأتت الأيام ونفت عنا هذه التهمة، بما أظهرنا من روح التضامن والإخلاص، وبوقوفنا صفاً واحداً مع أبناء الوطن الواحد، بعد أن صرح نوابنا في المجلس النيابي غير مرة: لا حماية للأقليات، ولا أقلية في البلاد، فالدستور وحده يحمينا ونحن عائشون في ظله على السواء.

فالباب الذي أغلقناه في وجه الأجنبي إغلاقاً محكماً هل يريد اليوم المطالبون بجعل دين الدولة الإسلام أن يفتحوه على مصراعيه؟ وذلك بخلق الأكثرية والأقلية في الدولة؟ وهل يطلب الأجنبي غير هذا ليتشبث يوماً بحجة تسول له التدخل ثانية في شؤوننا؟ فمن منا يكون أكثر وطنية وإخلاصاً للبلاد.[1]

وكان من نتيجة ذلك أن عدل عن الرأي بجعل دين الدولة الإسلام، وجعل المشاركة الوطنية للطوائف المختلفة أكثر حميمية. والدساتير السورية منذ ذلك الوقت لم تنص على دين الدولة بل اكتفت بالنص على دين لرئيس الدولة يكمله نص على أن الشريعة مصدر التشريع.

والمضحك في الأمر هو أن من نادى بشعار دين الدولة الإسلام كان مسيحياً، لبنانياً، مارونياً، طالب بذلك عن نية مشهودة يقصد منها تمتين التقارب بين المسيحيين والمسلمين بصورة عامة، وذلك بقصد تعميق مفهوم العربية بعدم فصلها عن الإسلام، وبقصد تعميق العداء بين العروبة والدولة العثمانية، وكان هذا أمراً مرضياً جداً للمسلمين بعد أن سيطر على الحكم العثماني الاتحاديون والائتلافيون وأحزاب الدونمة الذين اضطهدوا العرب وأهانوهم وحاولوا تتريكهم جنساً ولغة.

في عام ١٩١٩ صدر في القاهرة كتاب «الأزاهير المضمونة في الدين والحكومة» من تأليف الشيخ أمين ظاهر خير الله صليبا الشويري اللبناني، وقد استهل المؤلف كتابه بتوجيه رسالة إلى الشريف حسين ملك الحجاز، راجياً منه بصريح اللفظ أن تكون حكومة الدولة العربية حكومة إسلامية، نعم نعمها كل عربي، مسلماً وعيسوياً وموسوياً. وقد قدم المؤلف فذلكة عن كتابه راجياً فيها منه أن يأمر نجله الشريف فيصل بأن يكون الإسلام دين الحكومة الرسمي لأن الذي أشيع ــ حسب قول الشيخ أمين ظاهر خير الله ــ هو أن الدولة العربية ستكون دولة لا دينية، وقد أذن الملك حسين له بذلك وأمر ولده فيصل بطبع الكتاب الذي يقع

(١) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ٣٦ / ١٩٥٠ نيسان ص٢٠٢ المطران يوسف باي: دعونا نعيش في بلادنا بروح التضامن والإخاء.

في أربعمائة صفحة من القطع المتوسط وفيه ثمانية وأربعون فصلاً، بالإضافة إلى ذيل للكتاب يتألف من فصلين، والكتاب كله يؤكد ضرورة جعل الإسلام دين الحكومة الرسمي[1].

لكن خطبة ألقاها الشيخ على الطنطاوي عام ١٩٥٤ في الجامع الأموي أثارت زوبعة كبيرة بين المسلمين أنفسهم حين خطب الشيخ المذكور قائلاً:

«إن الله قسم الناس إلى قسمين هم: الذين آمنوا والذين كفروا ولهذا فإني أعتبر أن أبعد مسلم في أقاصي الهند وأندونيسيا أقرب إلينا نحن المسلمين في سوريا من الأستاذ فارس الخوري».

وهذا القول جعل كبار القوم من المسلمين يتوافدون على بيت فارس الخوري مستنكرين هذا الهجوم الذي لا مبرر له، وانبرى لهذا القول الكثير من الصحفيين ومنهم الأستاذ سعيد التلاوي صاحب صحيفة الفيحاء الدمشقية فقال:

كنت أقول أن الأستاذ الطنطاوي حر في أن يقول ما يقول لولا أنه قاضٍ يتناول راتبه من خزينة الدولة التي يغذيها المسلمون والنصارى بما يدفعونه من ضرائب ورسوم ومكوس.. ولولا أنه كان أول خطيب في الإسلام وقف على هذا المنبر في هذا الجامع العظيم ودعا بغير الهدى والموعظة الحسنة، وحاول أن يؤجج نار الفتنة والفساد بين المواطنين.. إن الأستاذ الطنطاوي القاضي الشرعي يتناول راتبه لا من الهند ولا من أندونيسيا.. ولو أنه كان في الهند وأندونيسيا وقال ما قال في النصارى من أبناء هذه البلاد لكان لنا معه شأن آخر وهو هذا الذي نحن في صدده الآن.[2]

وما قاله الشيخ الطنطاوي ربما لم يكن يقصد به النيل من فارس الخوري، فهو يقول عنه «كان أستاذي، استفدت منه، وقدرت فضله، ومدحته، ولكن كان آخر مسلم في آخر الأرض أقرب إلي منه»!![3]

ويستطرد الشيخ الطنطاوي في مدحه لـ «شخصية» فارس الخوري:

كان فارس الخوري أحد عباقرة العرب في هذا العصر، علماً وفكراً وبياناً، ورُب عالم واسع المعرفة كثير الإطلاع، لكنه غير مفكر، ورُب مفكر سديد الفكر، بعيد الغور، ولكنه ضيق المعرفة، ورُب عالم مفكر لكنه ضعيف البيان، عيي اللسان، أما فارس الخوري، فقد جمع الله له الثلاثة، وكنت أعجب منه كيف يكون له هذا الإطلاع على الإسلام، وهذا العقل، ولا يهديه

---

(١) مجلة المشرق ـ بيروت السنة ١٩٩٧/٧١ الجزء الثاني ص٤١٣ بشير العوف: الإسلام دين؟ أم دولة؟ أم دين ودولة؟

(٢) أعيد نشر هذا المقال في صحيفة التربية ـ حلب ١٩٥٤/١٠/٩.

(٣) علي الطنطاوي: ذكريات على الطنطاوي رقم ٢ فصل فارس الخوري دار المنار ـ جده ١٩٨٩ ص١٨٢.

عقله إلى اتباع دين الحق الذي لا حق في الأديان غيره! لا سيما أنه كان متمسكاً بأوهى خيط من النصرانية، فقد كان بروتستنتياً، بل كان أقرب إلى أن يكون بلا دين، فلما مرض وطال مرضه، رأيناه كلما عاده أحد من المسلمين، حدثه عن الإسلام، وكان يكثر أن يطلب من شيخنا الشيخ محمد بهجت البيطار «ومن غيره» أن يقرأ عليه القرآن. وأوصى «ونفذت وصيته» أن يتلى القرآن في مجلس التعزية به إذا مات. فكنت أحار في تفسير هذا كله، حتى نشر الأستاذ محمد الفرحاني كتابه عنه، وقد كان ملازماً له في مرضه، لا يفارقه أبداً، فإذا هو يؤكد أنه مات على دين الإسلام، فرحمه الله ورحم الفرحاني الذي فرّحنا بهذا النبأ[1].

ومع أن ما فاه به الشيخ الطنطاوي أثار زوبعة من الاستنكار والاحتجاج فإن صاحب العلاقة فارس الخوري كان موقفه من ذلك في منتهى الدبلوماسية والكياسة، وحين التقيا في الطريق بعد هذه الخطبة حاول الشيخ الطنطاوي أن يقول لأستاذه فارس الخوري شيئاً فسبقه هذا قائلاً له بالحرف الواحد:

لا عليك، لقد جهرت بحكم دينك وهذا ما أكبره فيك، وجعلتني أقرب النصارى إليكم وهذا ما أشكرك عليه[2].

ومهما يكن ما روي عن هذه الحكاية فإن الديمقراطية السورية هي الحكم في مسائل كهذه، حيث روى الشيخ الطنطاوي ذكرياته عن أستاذه فارس الخوري من الصفحة ١٨٥ إلى ١٩٥ مبجلاً إياه، مادحاً مزاياه، مشيداً بعبقريته منهياً فصله بالقول:

«إنه أخصب تاريخ في الدنيا وأحفله بالعظماء، ولكن عيبنا أننا لا نعرف تاريخنا ولا نقدر عظماءنا، ونتسابق إلى اقتناء الزجاج من عند غيرنا ونزهد بالألماس الذي تفيض به خزائننا، فيا أيها الشباب لا يخدعكم زجاج غيركم عن حر جواهركم!»[3]

إن مثل هذا الحادث جعل احترام أهل كل ملة للأخرى أكثر صدقاً، ونشأ بين الجانبين حوار في الدين، حوار أساسه حرية الضمير المضمونة الكاملة. وظهرت أصوات تقول «إذا تنامت المؤسسات المسيحية في البلاد فإنما يعود منها الخير على البلاد كلها بالذات، وليظهر للملأ أن العروبة ليست وقفاً على الإسلام والمسلمين. فبقاء بلد مستقل، حر، مثل لبنان حيث المسيحيون ليسوا أقلية، وبقاء أقلية مسيحية في الأقطار العربية، إنما هو بركة وخصب للبلاد بما

(١)علي الطنطاوي: ذكريات على الطنطاوي رقم ٢ فصل فارس الخوري مصدر سابق ص١٨٧.
(٢)علي الطنطاوي: ذكريات على الطنطاوي رقم ٢ فصل فارس الخوري مصدر سابق ص١٨٦.
(٣)علي الطنطاوي: ذكريات على الطنطاوي رقم ٢ فصل فارس الخوري مصدر سابق ص١٩٥.

لها من قيم الروح والفكر والخلق الكريم، تربطها من جهة بتراثه القديم، وتفتح آفاقها على العالم الخارجي، وتنعشها بروح المحبة والسلام والتضحية النابع من الإنجيل»[1]

لقد التصق المسيحيون بتربة بلادهم وامتزج كيانهم بكيانه حتى باتوا معه كياناً واحداً، وسعوا بشق النفس والبذل بلا حد في سبيل نمائه ورقيه وازدهاره في جميع ميادين الفكر والثقافة والعمران والاجتماع، وكانوا مجلين في سلاح القلم، سلاح الفكر، نظماً ونثراً، على مقاييس إقليمية وأبعاد دولية، وما كانوا في ساح الكرامة والاستشهاد أقل عدداً.

«قد نتهم، نحن المسيحيين العرب، في أمانتنا، وفي أصالتنا، وفي حرأتنا، بل حتى في استشهادنا. ولكننا نعلم، والكل يعلم علم اليقين، أننا لا ندين لكائن من كان بوجودنا وبرسالتنا إلا لاثنين فقط: بلادنا والمسيح. لذلك سنبقى على العهد أوفياء، أوفياء لبلادنا بسبب وفائنا للمسيح، وأوفياء للمسيح بسبب وفائنا لبلادنا»[2].

ورثة الماضي

كانت العهود التي قطعها الجانب المسلم لمسيحيي سوريا الكبرى متقاربة في الشبه فسارت على نمط واحد واستقت أهم شروطها من عهدة الرسول العربي لأهل نجران النصارى، ومن بعده عهدة عمر بن الخطاب لصفرونيوس بطريرك القدس، سنة ٦٣٨ عندما تسلم منه مفاتيح المدينة، وقد ساعدت هذه الشروط السمحة على عدم ولاء السريان للروم. غير أن أوضاع النصارى ما عتمت أن تبدلت في غروب القرن الأول الهجري: فعبد الملك عرّب الدواوين وكانت باليونانية، واستغنى عن كثير من الموظفين النصارى، وضغط على بني تغلب لحملهم على اعتناق الإسلام ديناً. وتعهد الفقهاء حقوق الذميين وواجباتهم بالذكر والشرح والتفصيل، وزادوا في القيود كمنع حمل السلاح وركوب الخيل والتزيي بزي خاص. وبقي الخلفاء والولاة أكثر منهم تسامحاً، فكثيراً ما قربوا المسيحيين واستعانوا بهم، وقدروا علمهم وخدمتهم في الطب والفلسفة والكتابة.

ومع ذلك فقد نكل بهم المتوكل وحظر عليهم تدريس اللغة العربية ودخول المدارس العامة، وقد كان معروفاً عن هذا الخليفة ضيق صدره وتعصبه الشديد لآرائه، فاضطهد النصارى

(١) الأب أغناطيوس ديك: النصارى العرب والوطن العربي ــ مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٦٧/٣٥ حزيران ٤١٦

(٢) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٦٨/٥٤ حزيران ص٤٢٦.

كما اضطهد جماعة المعتزلة من المسلمين ونعم النصارى بالحرية التامة في أيام الدولة الطولونية، وتمتعوا بنفوذ عظيم، وشغلوا المناصب العليا في عهد الفاطميين بمصر ما خلا الحاكم بأمر الله الذي اضطهدهم ولكنه رجع عن قراره في أخريات حياته.

لقد استندت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين طوال سنوات عديدة على تعهدات قدمت من الخلفاء والحكام. ويمكن إيراد نموذج لذلك عن نصارى نجران، وهي الكتب التي كتبها «الخلفاء الراشدون» لهم وهي تسلط الضوء على مجمل أحوالهم وتحدد علاقتهم بالمسلمين، فأمل الكتاب الذي كتبه عمر لهم لما أجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم بنجران العراق في الكوفة فهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين، وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه.

(أما بعد) فمن مرّوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسقهم من حرث الأرض، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله وعقبة لهم مكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم.

(أما بعد) فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة(*) وحزيتهم(**) عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن يقدموا ولا يكلفوا إلا من صنعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم. شهد عثمان بن عفان، ومعيقب، وكتب.

(*) تجلت سياسة عمر بن الخطاب في سوريا أن يكون المسلمين العرب في البلاد المحتلة بمثابة طبقة أرستقراطية دينية عسكرية، فيحافظون على نقاوة دمهم، ويمتنعون عن مخالطة المواطنين، فلا يقتنون المزارع، ولا يعملون في الأرض، أما الشعوب المغلوبة فقد جعلوا في وضع خاص عرفوا فيه بـ (أهل الذمة) ـ وهم اليهود والنصارى وصابئة العراق ـ وقد ترتب عليهم، بحكم هذا الوضع، أن يؤدوا أتاوة تشمل على ضريبة الأرض (الخراج في ما بعد) وعلى ضريبة الدخل (الجزية في ما بعد)، لكنهم دخلوا في حماية الإسلام وأعفوا من التجنيد، إذ كان من حق المسلم وحده أن يمتشق الحسام مدافعاً عن حياض الإسلام، هكذا نشأ مبدأ المباينة بين الغالب والمغلوب، وغدا أصلاً ثابتاً من أصول السياسة×

× د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص٢٠ مرجع سابق.

(**) تعتبر الجزية ضريبة يدفعها الذميون من رعايا الدولة الإسلامية في مقابل حماية الدولة لهم وانتفاعهم بموافقتها، والجزية لا تؤخذ ممن لا قدرة له على العمل، ويعفى منها النساء والأطفال والشيوخ والعاجزون عن القتال ومن لا قدرة له على ذلك. وقد فرضت الجزية بموجب قوله تعالى «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية...» التوبة ٢٩/٩.

فلما قبض عمر رضي الله عنه واستخلف عثمان أتوه إلى المدينة لهم إلى الوليد بن عقبة ـــ وهو عامله على الكوفة:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى الوليد بن عقبة، سلام الله عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو

(أما بعد) فإن الأسقف والعاقب وسراة أهل نجران الذين بالعراق، أتوني فشكوا إلي وأروني شرط عمر لهم وقد علمت ما أصابهم من المسلمين، وإني قد خففت عنهم ثلاثين حلة من جزيتهم تركتها لوجه الله تعالى جلّ ثناؤه وإني وفيت لهم بكل أرضهم التي تصدق عليهم عمر عُقبى مكان أرضهم باليمن، فاستوصِ بهم خيراً فإنهم أقوام لهم ذمة، وكانت بيني وبينهم معرفة. وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فأوفهم ما فيها، وإذا قرأت صحيفتهم فأرددها عليهم والسلام.

وكتب حمران بن أبان، للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين.

فلما استخلف علي (ع) وقدم العراق، أتاه أسقف نجران ومعه كتاب في أديم أحمر قال: أسألك يا أمير المؤمنين خط يدك وشفاعة لسانك ـــ يريد منه أن يرجعهم إلى بلادهم ـــ فأبى علي (ع) أن يردهم. وقال: ويحك إن عمر كان رشيد الأمر، ثم كتب لهم الإمام علي (ع):

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين لأهل النجرانية، إنكم أتيتموني بكتاب من نبي الله ﷺ فيه شرط لكم على أنفسكم وأموالكم وإني وفيت لكم بما كتب لكم محمد ﷺ وأبو بكر وعمر، فمن أتى عليهم من المسلمين خليف لهم ولا يضاموا ولا يظلموا ولا ينتقص حق من حقوقهم.

وكتب عبد الله بن أبي رافع، لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين، منذ ولج رسول الله ﷺ المدينة[1].

وربما كانت هذه التعهدات هي التي أبقت سوريا محافظة على مظهرها النصراني طوال العصر الأموي.

(١) وردت هذه النصوص في كتاب محمد سعيد الطريحي: الديارات والأمكنة النصرانية في الكوفة وضواحيها دون ذكر دار النشر بيروت ١٩٨١ ص٤٠و٤١.

إذا تتبعنا هذه العلاقة بين الحاكم والرعية في المرحلة اللاحقة نرىأن إبراهيم باشا مثلاً تودد إلى رعاياه السوريين حين غذاهم اكتساباً لعطفهم لا سيما النصارى منهم، وذلك بحفظه للأمن ونشره للعدالة وإدخاله لكثير من الإصلاحات الاجتماعية. و لم يكن مسيحي قبل ذلك العهد في مدينة كدمشق مثلاً يجرؤ على أن يظهر أمام الناس راكباً حصاناً أو لابساً عمامة بيضاء أو حمراء أو خضراء. و لم يكن لمسيحي أن يشغل وظيفة من الوظائف الهامة في الدولة، وقد أزيلت كل هذه العقبات يومئذ.

وقد كانت حقبة الاحتلال المصري لسوريا (١٨٣١ــ١٨٤٠) عهداً جديداً في تاريخ البلاد الثقافي، فقد زعزع إبراهيم باشا الزعماء الإقطاعيين المحليين (المقاطعجية) وطبق أمر فرض الضرائب المنظمة وأرغم الجميع على الاعتراف بحقوق غير المسلمين في الوظائف المختلفة في دوائر الحكومة المحلية. ومنشوره سنة ١٨٣٩ الذي يقول بالمساواة بين أفراد جميع الطوائف أمام القانون طبق ونفذ حالاً بخلاف المنشورات السابقة التي كانت تصدر عن السلاطين العثمليين. و لم يتردد في استعمال القوة مع مسلمي دمشق وصفد الذين اعترضوا على تغيير حالة مواطنيهم الذميين وأرغمهم على قبول النظام الجديد. وبينما لم يستطع القنصل البريطاني قبل هذا المنشور بأربع سنوات أن يدخل دمشق راكباً دون حرس لحمايته أصبح بعد صدوره بسنة يركب أنى شاء في دمشق دون أي حرس[1].

إن خلاصة ما تطرقنا إليه في هذا الفصل هو أن المسيحيين سعوا عبر مئات السنين أن تكون لهم المساواة مع الآخرين من الطوائف الأخرى في هذه البلاد وشعارهم هو: الدين لله والوطن للجميع.

لقد استعملت المسيحية في تاريخها العنف ضد الوثنية وضد الأديان الأخرى، كما اضطهدت الطوائف المسيحية بعضها بعضاً بشراسة ودموية، ومع ذلك يمكن القول إن المسيحيين لم يعانوا الاضطهاد في المرحلة الإسلامية العربية، بل تعرضوا لبعض التمييز الذي كان من طبيعة الدولة الدينية وأنظمتها السائدة في ذلك الزمن، كالاضطهاد المملوكي أو العثماني، على سبيل المثال، الذي شمل طوائف إسلامية. وكان أحياناً في ما خص المسيحيين بمثابة ردة فعل لتحالفهم مع العرب المسيحيين ضد الشرق الإسلامي، وأن حصول اضطهاد جزئي في مرحلة محددة لا يعني أنه كان شاملاً ومستمراً في كل الظروف.

---

(١) فيليب حتي: تاريخ العرب ترجمة د. أدوار جرجي ود. جبرائيل جبور دار غندور ــ بيروت ١٩٧٤.

دعوة للحوار

الحوار بين الأديان هو الذي يقارب العقول للقلوب، وبقاء الأمور غامضة يوجد صعوبات كثيرة تؤدي إلى إساءة الفهم وتقوية عوامل التصادم في المجتمع، فيعرقل بعضه بعضاً ويضيع جزءاً غير يسير من فاعلية وحدته الحيوية ويضعف فيه التنبه لمصالحه الدنيوية وما يحيط بها من أخطار.

وهناك في التاريخ العربي الكثير من هذه الحوارات، منها رسالة الهاشمي إلى الكندي في مناظرة بينهما في الدين، تجتمع فيها صفات الحوار الصحيح وشروطه[1].

أما الهاشمي فهو عبد الله بن إسماعيل، والكندي فعبد المسيح بن إسحاق.

وجاء في التعريف بهما في صدر الكتاب الذي ينطوي على رسالتيهما:

كان في زمن عبد الله المأمون رجل من نبلاء الهاشميين.. قريب القرابة من الخليفة «يقلل إنه ابن عمه»، معروف بالنسك والورع والتمسك بدين الإسلام وشدة الإغراق فيه والقيام بفرائضه وبسننه، مشهور بذلك عند الخاصة والعامة. وكان له صديق من الفضلاء ذو أدب وعلم، كنديُّ الأصل، مشهور بالتمسك بدين النصرانية، وكان في خدمة الخليفة، وقريباً منه مكاناً، فكانا يتوادان ويتحابان، ويثق كل منهما بصاحبه وبالإخلاص له. وكان أمير المؤمنين المأمون وجماعة أصحابه والمتصلون به قد عرفوهما بذلك.. فكتب الهاشمي إلى النصراني كتاباً يدعوه به إلى الإسلام، ورد الكندي على الكتاب بكتاب يدعو به الهاشمي إلى المسيحية.

قال الهاشمي في صفة الحوار المطلوب مع المسيحيين:

«... ورأيت أيضاً مطارنة وأساقفة مذكورين بحسن المعرفة وكثرة العلم، مشهورين بشدة الإغراق في الديانة النصرانية، مظهرين غاية الزهد في الدنيا، فناظرتهم مناظرة منصفة، طالباً للحق، مسقطاً بيني وبينهم اللجاج والمراء والمكابرة وبالسلطة، والصلف والبذخ بالحب. وأوسعتهم أمناً أن يقول بحجتهم، ويتكلموا بجميع ما يريدونه، غير مؤاخذ لهم بذلك ولا متعنت بشيء كمناظرة الرعاع والجهال والسقاط والعوام والسفهاء من أهل ديانتنا الذين لا أصل لهم

(١) مجلة المسرة ــ حريصا ــ السنة ١٩٧١/٥٠٧ نيسان ص١و٢٨٢.

ينتهون إليه، ولا عقل فيهم يعولون عليه، ولا دين ولا أخلاق تحجبهم عن سوء الأدب، وإنما كلامهم العنف والمكابرة والمغالبة بسلطان الدولة بغير علم ولا حجة».

ثم يطلب الأمير الهاشمي إلى الكندي المسيحي قول ما عنده بدون ما تحرّج:

«...فاكتب بما عندك من أمر دينك، والذي صح منه في يدك، وما قامت به الحجة عندك، آمناً مطمئناً، غير مقصر في حجتك، ولا مكاتم لما أنت معتقده، ولا فرق ولا وجل. فليس عندي إلا الاستماع للحجة منك، والصبر والإقرار بما يلزمني منه، طائعاً غير منكر ولا جاحد ولا هائب، حتى نقيس ما تأتينا به وتتلوه علينا، ونجمعه إلى ما في أيدينا، ثم نخبرك بعد ذلك. على أن تشرح لنا علته، وتدع الاعتلال علينا بقولك إن الفزع حجبك وقطعك عن بلوغ الحجة، واحتجت أن تقبض لسانك ولا تبسطه لنا ببيان الحجة. فقد أطلقناك وحجتك لئلا تنسبنا إلى الكبرياء، وتدعي علينا الجور والحيف، فإن ذلك غير شبيه بنا. فاحتج، عافاك الله، بما شئت، وتكلم بما أحببت، وانبسط في كل ما تظن أنه يؤيدك إلى وثيق حجتك، فإنك في أوسع الأمان.

«ولنا عليك، أصلحك الله، إذ قد أطلقناك هذا الإطلاق، وبسطنا لسانك هذا البسط، أن تجعل بيننا وبينك حكماً عادلاً لا يجور ولا يحيف في حكمه وقضائه، ولا يميل إلى غير الحق إذا ما تجنب دولة الأهواء، وهو العقل الذي يأخذ به الله، عز وجلّ، ويعطي. فإننا قد أنصفنا في القول، وأوسعناك في الأمان، ونحن راضون بما حكم به العقل لنا وعلينا، إذ لا إكراه في الدين..»

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

المسيحية السورية
من الأكثرية إلى الأقلية

تطور الوجود المسيحي في سوريا من أقلية في بدايات نشوء الدعوة المسيحية إلى أن تطور (وغدا معظم سكان بلاد الشام إلى أواخر القرن الثالث عشر من النصارى)[1]

وقد نهجت النصرانية طريقها إلى شتى جنبات البلاد العربية قبل ظهور الإسلام، وقد يكون إلى البعض منها في فجر النصرانية على يد المجوس الذي جاءوا بيت لحم، والعرب الذين تنصروا يوم عيد العنصرة في أورشليم، ثم على يد الرسول بارتلماوس الذي يقول عنه صوفرونيوس في كتابه «مشاهير الرجال» بعد أن نوه بذلك أوسابيوس، أنه بشّر بالإنجيل (بلاد الهند التي تسمى السعيدة). ومعلوم أن هذا الوصف نعت لبلاد اليمن، فضلاً عن أن المؤرخ المذكور يصف تلك البلاد بالمحاذاة للحبشة. ومن اليقين أن النصرانية بدأت في فلسطين ثم انتقلت إلى سوريا وما بين النهرين ثم إلى جزيرة العرب حيث رسخت قدمها واتخذت صورة معلومة ومراكز ذكرها العرب وغيرهم منذ أواسط القرن الرابع.

ومن سوريا نرى أن بصرى في حوران كانت في القرن الثاني رأساً لأسقفيات كثيرة، والعرب اللخميين في الحيرة كانوا نصارى قبل الإسلام ولهم كنائس منظمة وأساقفة قرئت تواقيعهم في المجامع منذ القرن الخامس. وانتشرت في ظهرانينهم الحياة الرهبانية، وأنشئت الأديرة، يذكر منها دير بناه حنظلة الطائي بالقرب من شاطئ الفرات، يعرف بدير حنظلة، ودير آخر بنته هندام الملك الشاعر عمرو، في منتصف القرن السادس، وفي جنوب البلاد العربية ولاسيما اليمن نفذت النصرانية إليها باكراً وزادها تأصلاً وتبسطاً السفارة التي أوفدها

(١) د. كمال صليبي: تاريخ لبنان الحديث مرجع سابق ص٧.

الإمبراطور قسطنسيوس سنة ٣٥٦ بقيادة ثيوفيلس أندس الأيوسي حيث أنشأ بيعة في عـدن ثم بيعتين في أرض حمير، أما نجران التي حاءتها النصرانية على المذهب السرياني فيقال إن حاملـها إليها رجل ذو ورع قدمها من سوريا اسمه فيميون، فاعتنقت البلاد النصرانية في غروب القـرن الرابع، وفي الحجاز نرى أن جميع قبائل قضاعة وأكثر قبائل ربيعة وتميم وطيء وغيرها من قبائل الشرق والشمال وقلب الجزيرة كانت تدين بالنصرانية قبل الإسلام.

السريان وبزوغ الإسلام

وما كادت تمضي فترة طويلة على الفتح الإسلامي عند أهل سوريا حتى تم انتقال بطيء وتدريجي إلى الإسلام. وقد يعسر على المؤرخ أن يتبع أطوار هذا الإسلام التدريجي، وإنما يؤكـد أرصن المؤرخين أن ثلثي المسيحيين في كرسي إنطاكية كانوا من السريان عند الفتح العربي فلـم يبق منهم إلا جماعة قليلة بالنسبة للمجموع العام للمسيحيين أما الباقي فقد مرقـوا إلى ديـن الإسلام وبعكس ذلك الملكيون فإنهم لا يزالون على نسبة مئوية مرتفعة من حيث العدد.

وكان قد بقي من أتباع الكنيسة السريانية حتى أوائل القرن الثاني عشر نحو مائتي ألـف نفس في سورية جوار ماردين وديار بكر، ومنذ ذلك الحين عصف بهم الاضطهاد والتشـريد فلجأ من بقي منهم إلى سورية ولبنان.

ويمكن التأكد من ذلك أنه كان هناك ٢٥٠ أسقفية في ذلك الوقت، وفي الخمسـينيات من القرن العشرين لم يبق منها إلا نحو عشر أسقفيات ثلث أهلها في العراق. أما كنيسة الـروم التي أصابها الاضطهاد والاعنات فقد سَلِمَ نحو نصف أبنائها.

وليس من العسير أن تعلل «الفتح اليسير» لسوريا الذي تم للعرب باكتساح هذا الإقليـم من الإمبراطورية البيزنطية، ذي الموقع الحربي الخطير. فالغارات التي شنها الفرس، في أوائل القرن السابع، كانت قد فعلت في تقويض دعائم الجيش فعل الانشقاق المونوفيزي في منتصف القـرن الخامس في تصديع وحدة المجتمع الروحية. أما المساعي التي بذلها هرقـل في الآونـة الأخـيرة (٦٣٨) لرتق الخرق الديني، باقتراحه بعض التسوية فكانت نظير ما سبقها من المحاولات عقماً. ولقد عمد سرجيوس بطريرك القسطنطينية، وهو سوري ينحدر من أسرة سريانية المذهـب إلى استنباط تسوية جديدة، فجهد في تحويل الأنظار عن الخلاف الأصلي في طبيعة المسيح إلى فكرة

«المشيئة الواحدة». لكن هذه البدعة لم تكن لترضي البيزنطي ولا السوريين المنشقين، ولم تكن الكنيسة في نظر هؤلاء مؤسسة دينية فحسب، بل كانت، إلى ذلك، تعبيراً مكبوتاً عن عاطفة قومية عميقة.

ومن المعلوم أن الكنيسة السريانية بفرعيها الشرقي والغربي، وما انحدر منها من طوائف، لم تكن جامعة لجميع النصارى السوريين، بل إن جماعة صغيرة منهم انساقت بتأثير اللاهوت اليوناني المنبثق من إنطاكية والقسطنطينية، ووافقت على مقررات مجمع خلقيدونية الكنسي سنة ٤٥١، وبعد ذلك استطاعت هذه الطائفة أن تحرز وضعاً قانونياً، تفادت به الحرم الكنسي، وحظيت فوق ذلك بحماية كنيسة الدولة، ورعاية المدنية القيصرية. وقد أخذت اللغة اليونانية تحل تباعاً محل السريانية في شعائرهم ومراسيم الصلاة لأن الكهنة كانوا يختارون في الغالب من بين سكان المدن ومن أبناء اليونانيين الذين استوطنوا المستعمرات.

وغالب الظن أن الإسلام، في أول أمره، لم يبدُ غريباً كل الغرابة لدى النصارى السريان، ولا دخيلاً عليهم، بل لعله، بالنسبة إليهم ــ كان أقرب إلى طائفة يهودية ــ مسيحية جديدة منه إلى دين جديد. لذلك كانت خصومة الإسلام للمسيحية بوجه العموم من قبيل المسافة أكثر منها من قبيل التعارض في المبادئ.

ولقد كتب أحد بطاركة الكنيسة الشرقية على أثر الفتح العربي، يصف الحكام الفاتحين بهذه العبارات الفياضة المشرقة يقول: «إن العرب الذين أولاهم الله السلطة على العالم في هذا العهد هم، كما تعلمون، يقيمون فيما بيننا، ولا يتخذون من النصرانية موقف عداء، بل هم على عكس ذلك: يمتدحون ديننا ويجلون الكهنة والقديسين، ويجودون بالتقدمات للكنائس والمناسك»[1]. ولقد «غالى بعض المستشرقين في هذا الاعتبار، حتى أنهم جعلوا الإسلام من وجوه عديدة وريثاً للنصرانية السريانية»[2].

كما تقوم بين السريانية والإسلام مشابهات كثيرة في ممارسة الشعائر ومزاولة طقوس العبادة. فقد أقرت الكنيسة السريانية ثلاث صلوات قانونية في النهار، واثنين في الليل، قبل أن ينظم الإسلام الصلوات الخمس بوقت طويل. والصلوات الليلية التي ورد وصفها في القرآن الكريم «المزمّل: ١ــ٨، ٢٠» تعيد إلى الذاكرة رياضة الرهبان الروحية وتوفرهم على العبادة. ولقد كان النساك يتخذون في أثناء الصلاة أوضاعاً جسدية معينة تشتمل على السجود ولمس

(١) د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين الجزء الثاني مرجع سابق ص١٤٣.

(2)E.g. Carl. H. Becker: Islamstudienn, vol1, Leipzig 1924 pp16-18,386 seq.

الأرض بالجبين. وكان المصلي، إذا ما كرر السجود متضرعاً، وصدم الأرض بجبينه سقط شعر رأسه أمامه على الأرض.

وفي شعر جاهلي وصف لناسك، تحجر جبينه من ملمس الأرض، حتى غدا فيه ما يشبه ركبة العنزة[1].

«وبعد المجمع الخلقيدوني دافعت الكنيسة الملكية عن العقيدة الكاثوليكية بالرغم من المقاومة التي لاقتها من قبل السريان والأقباط المدفوعين بنوع من القومية الدينية. ولما جاء الفتح العربي ظلت هذه الكنيسة نفسها ثابتة بالرغم مما نالها من الاضطهاد، خصوصاً من أجل ما لها من مظاهر المخالفة للإمبراطورية البيزنطية. وقد مكنها إيمانها من التغلب على العاطفة، في حين أن السريان الذين حيوا الجيوش العربية بحماسة قد مرقوا تقريباً إلى الإسلام».[2]

وينفي الأب حجار في تصريح له وجود سريان في سوريا حيث يقول: «عندنا شريحة من المسيحيين ــ أصلهم غير سوري ــ خاصة في منطقة الجزيرة العربية، وهم من السريان والآشوريين، أتوا من مناطق العراق الشمالية ومن المناطق التركية وديار بكر وماردين، ومعظم هؤلاء هاجروا للسويد وأمريكا واستراليا»[3].

وإذا كان الأب حجار ألمح إلى أنه لا يوجد سريان في سوريا دون أن يحدد في أي وقت ذلك فإننا نحيله على مرجع واحد دونه العشرات من المراجع التي توضح وجود السريان في سوريا هنا وهناك. وكمثال على ذلك كتاب «رحلة فتح الله الصايغ الحلبي» الذي قام برحلته عام ١٨١٠ إلى بادية الشام وصحاري العراق والعجم والجزيرة العربية، حيث يذكر: «وبعد نزولنا على الماء سرنا مدة سبع ساعات، حتى وصلنا إلى «صَدَد» مع غياب الشمس. فمشى نوفل أمامنا إلى بيت الشيخ. لأن الشيخ والضيعة جميعها من النصارى السريان القدماء[4]، فرحبوا بنا واستقبلونا أحسن استقبال»[5].

---

(١) لويس شيخو: النصرانية وآدابها بيروت ١٩١٩ ص١٧٨.

(٢) الأب يوسف حجار: الكنيسة الملكية الكاثوليكية نظرة تاريخية الجزء الرابع مجلة المسرة السنة ٤٤/١٩٥٨ آذار ص١٧٩.

(٣) مجلة «المجلة» لندن: تصريح للأب يوسف حجار العدد ١٠٠٠ ١١ــ١٧/٤/١٩٩٩ ص٥١.

(٤) قرية صدد تقع في الشمال الشرقي من دمشق بالقرب من دير عطية. ومما يلاحظ أن سكانها في الوقت الحالي أصبح منهم السرياني الكاثوليكي والبروتستانتي بعد أن كانوا جميعاً سريان أرثوذكس في فترة الرحلة.

(٥) تحقيق د. يوسف شلحد: رحلة فتح الله الصايغ الحلبي، دار طلاس ــ دمشق ١٩٩١ ص٤٦.

وقد اكتفينا بهذا المرجع دونه المراجع الأخرى لأننا تناولنا بعضها في كتاب سابق لنا[1].

المسيحيون وبزوغ الإسلام

رغم الفتوحات الإسلامية لسوريا، فإن السياسة التي اتبعها خلفاء بني أمية، فيما نـــدر منهم، كانت التسامح تجاه المسيحيين، إننا نقرأ مثلاً «إن السياسة التي استنها معاوية الوالي هـي السياسة التي اتبعها معاوية الخليفة، فتحقق له بذلك المقام البارز الثابت في عالم الشـــهرة بـين العرب، فقد جعل نقطة الانطلاق في سياسته تعهد رعيته السورية الجديدة الذين كانوا إلى حينه على النصرانية، وكذلك القبائل العربية التي سبق أن استوطنت البلاد منـــذ العـــهد الجـاهلي واعتنقت النصرانية، نظير الغساسنة. ولقد كان الكثير من هذه القبائل ترتقي بنسبها إلى عـرب الجنوب، خلافاً للنازحين المتأخرين الذين كانوا من عرب الشمال. وقد اختار معاوية، زوجة له، امرأة مسيحية سريانية هي ميسون ابنة بحدل، من بني كلب من عرب الجنوب، احتفظت بدينها وغدت أم يزيد. وكان طبيب معاوية الخاص وشاعر بلاطه مسيحيين أيضاً. واحتفظ معاويـــة بمنصور بن سرجون مديراً لمالية الدولة. هذا وإن المدونات العربية لتشهد على الإخلاص الـذي كان السوريون يكنونه لحاكمهم الجديد، بداعي سياسته المستنيرة السمحة»[2].

ولقد عين الخليفة معاوية طبيبه المسيحي، ابن أثال، عاملاً على ولاية حمص، وهو تعيـين منقطع النظير لمسيحي في التاريخ الإسلامي «كما يقول اليعقوبي». وكان شاعر البلاط في عهده الأخطل من بني تغلب، وتغلب قبيلة مسيحية. وكان الموارنة والسريان يرفعون إليه خصومـاتهم الدينية ليقضي بينهم. وفي الرها عمل مراراً على ترميم كنيسة مسيحية هدمها الزلزال. بمثل هذه السياسة السمحة والشهامة الفائقة، استطاع معاوية أن يمتلك قلوب السوريين، وهم في صـــدر الإسلام نظير مكانة اليونان من الرومان، وأن يوحد مركز سوريا في الإمبراطورية الإسلامية.

وإذا كان العرب الفاتحون قد أظهروا في أول عهدهم مســـالمة للمســـيحيين وتســـاهلاً ورحابة صدر حفظها لهم التاريخ بكل ثناء، فإن «خلفاء معاوية ما عتموا أن بدلـــوا خطتـــهم واتخذوا تجاه المسيحيين سياسة على جانب كبير من الدهاء. فبدل أن يصلوهم اضطهاداً عنيفـــاً جعلوا يكثرون من أعنانهم ليحملوهم على استكراه دينهم والمروق منه إلى الإســـــلام. ومنـــذ

(١) راجع سمير عبده: السريان قديماً وحديثاً المعهد الملكي للدراسات الدينية ــ عمان ١٩٩٧ ص٤٦.

(٢) د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين مرجع سابق ص٢١٢.

سنة ٧١١ أبطل استعمال اللغة اليونانية في الدواوين واستعاض منها بالعربية. ثم أصدر الخليفة عمر الثاني «٧١٧ــ٧٢٦» أمراً يحتم بأن شهادة المسيحي لا تقبل على مسلم، وأن الوظائف العامة في الدولة مقفلة أبوابها دون المسيحيين، وأن من يمرق من المسيحية إلى الإسلام يعفى من الجزية... إلخ وهذا ما حدا، ولا شك، الوزير الأول يوحنا الدمشقي(*) أن يهجر وظيفته وقصره إلى خلوة الدير[1] وكان ذلك بين سنتي ٧١٨ و ٧٢٠.

ويقول أحمد أمين: «كانت تعاليم الإسلام تقضي أن يدعوا سكان البلاد المفتوحة إلى الدخول في الإسلام، فإن أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء وإن لم يسلموا دعوهم إلى أن يسلموا بلادهم للمسلمين يحكمونها ويبقوا على دينهم إن شاؤوا ويدفعوا الجزية. وإن لم يقبلوا الإسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت عليهم الحرب وقوتلوا».

ولما انتشر الإسلام لم يعد يقبل من العربي إلا الإسلام أو القتال، فأصبح غير محل للاسترقاق، حتى لو وقع أسيراً فإما أن يسلم وإما أن يقتل.

«وقد كان الباعث للناس على الدخول في الإسلام مختلفاً، فمنهم من دخل فيه مؤمناً بحسن مبادئه وصدقها، وساعد على ذلك بساطة العقيدة الإسلامية وسهولة فهمها، ومنهم من دخل فيه فراراً من الجزية، لما علمت أن من رضي أن يبقى على دينه تضرب عليه الجزية، فإذا أسلم رفعت عنه، حتى لقد هال بعض الأمراء دخول الناس في الإسلام فراراً من الجزية. وكتب عمال الحجاج إليه: «إن الخراج قد انكسر، وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار» فأخذ الحجاج منهم الجزية مع إسلامهم، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون».[2]

(*) ولد يوحنا الدمشقي في دمشق نحو سنة ٦٧٥ وتوفي عام ٧٤٩ وهو ينتسب إلى إحدى كبريات العيال المسيحية. وكان أبوه الوجيه منصور بن سرجون يتولى إدارة بيت المال عند الفتح الإسلامي، وهو الذي تولى مع أسقف دمشق مهمة تسليم المدينة للعرب الفاتحين. ويسميه ثاوفالس المؤرخ (الرجل العريق في المسيحية) وقد وكل إليه الفاتحون أمر جباية الأموال الأميرية ومسك حسابات الجيش، فكان عند معاوية ومن خلفه وزيراً مطلقاً كالصدر الأعظم عند سلاطين بني عثمان، فأولاه الاثنان ثقة كبرى، وكان لا بد لهما من خبرته وإخلاصه لتنظيم شؤون دولتهما الحديثة النشأة.

ونشأ يوحنا، على ما يقال، مع يزيد بن معاوية، الذي كان وظل دوماً موالياً للنصارى. ويظهر أن يوحنا خلف أباه في وظيفته لدى الخليفة. وقد دعي يوماً إلى أن يختار بين امتيازات منصبه وأمانيه للمسيح، على أننا نجهل الأحوال الدقيقة التي وضعته في ذلك المأزق الخطير، فكان النصيب الذي اختاره نصيب موسى الذي عد عار المسيح أفضل من كنوز الأرض جميعها.

للتوسع في هذه السيرة يراجع مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٤٩/٣٥ ك١ ص٣.

(١) بدون توقيع: سيرة القديس يوحنا الدمشقي مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٥٠/٣٦ نيسان ص٢٦٨.

(٢) د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين الجزء الثاني مرجع سابق ص١٨.

وفي مدى عقد من الزمن بدل الفتح الإسلامي وجه الشرق الأدنى، وفي مدى قرن بدّل وجه العالم المتمدن، وذلك فوق ما يستطيع فتح الاسكندر أن يدعيه، والفتوحات الإسلامية بعيدة عن أن تعتبر من قبيل الأحداث العارضة، فقد قام الدليل على أنها كانت عاملاً حاسماً في تطوير مجتمع العصور الوسطى، وتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية، قاطعة بذلك الصلة البحرية بين الشرق والغرب. هذا فضلاً عن أن احتلال شواطئ المتوسط، الشرقية والغربية والجنوبية، كوّن عالماً جديداً هو العالم الذي عاش فيه شارلمان «٧٦٨ــ٨١٤» ومعاصروه. وبذلك انتهى العصر القديم وبدأت العصور الوسطى[1].

وإلى أيام الحكم العباسي حافظت سوريا على طابعها المسيحي العام، لكن الوضع أخذ بعد هذا، يتبدل تبدلاً محسوساً، ذلك أن خمسة آلاف من نصارى بني تنوخ في جوار حلب قد عملوا بإشارة المهدي العباسي واعتنقوا الإسلام «نقلاً عن ابن العبري». وكان التنوخيون الذين دخلوا لبنان في مطلع القرن التاسع من الأسر العربية الإسلامية الأولى التي استوطنت الجبل.

وحين يتطرق المجمع الفاتيكاني الثاني إلى الديانة الإسلامية يقول: «إن الكنيسة تنظر بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم، الضابط الكل خالق السماء والأرض المكلم البشر. ويجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما خضع له إبراهيم الذي يطيب للإيمان الإسلام أن يستند إليه. وإنهم يجلون يسوع كنبي، وإن لم يعترفوا به كإله، ويكرّمون مريم أمه العذراء، كما أنهم يدعونها بتقوى. وعلاوة على ذلك، إنهم ينتظرون يوم الدين عندما يُثيب الله كل البشر القائمين من الموت، ويعتبرون أيضاً الحياة الأخلاقية ويؤدون العبادة لله، لاسيما بالصلاة والزكاة والصوم».

ولا يتجاهل المجمع ما اعتورت العلاقات بين المسيحيين والمسلمين من الخلافات والعداء على مر الأحيال. لذا فهو يقول: «إذا كانت قد نشأت على مر القرون منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمع المقدس يحرّض الجميع على تناسي الماضي والانصراف بإخلاص إلى التفاهم المتبادل، لكي يصونوا ويعززوا سوية العدالة الاجتماعية والخيور الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع الناس».[2]

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام دار الكتاب العربي ــ بيروت ١٩٧٥ ص٩٢.

(٢) الأب ألبير أبونا في «التقرير السنوي للجنة الخيرية لطائفة الكلدان بحلب لعام ١٩٩٧ دار الضاد للطباعة والنشر ــ حلب ص٤٤و٤٥.

ومهما كان وضع المسيحيين في العالم فإن عددهم يتناقص مقارنة مع الطوائف الأخرى، ففي عام ١٩٥٥ كان عددهم ثلث عدد سكان العالم، حسب الجدول التالي:

المسيحيون	٨٦٠ مليون	الشنتويون	٢٥ مليون
المسلمون	٣٥٠ مليون	الطاويون	٥٠ مليون
اليهود	١١,٥ مليون	الزوروستريون	٠٠.١٢٥ مليون
الكونفوشيون	٣٠٠ مليون	أصحاب أديان طبيعية	١٢٠ مليون
البوذيون	١٥٠ مليون	لا دينيون	٣٨٠ مليون
الهندوسيون	٢٥٥ مليون	المجموع	٢٥٠١,٦٢٥ [1]

وفي تحليل هذه الأرقام نرى أن المسيحية ولو أن عددها هو الأول في المجموعة، فإن التطور الديمغرافي يدل على أن المسيحية تخسر من امتدادها، وعلم الحياة أبسط ظلاً على الجماعات اللامسيحية لأن نسبة التوالد في المسيحية أقل منها في غيرها. وعلى سبيل المثال تزيد المسيحية في العالم نحو ١٠ ملايين، واللامسيحية ١٧ مليوناً.

وحسب إحصاء عام ١٩٩٦ بلغ سكان العالم ٥٤٨٠٨٥١٠٠٠٠ نسمة حسب الآتي:

المسيحيون	١٨٧٩٤٦٣٠٠٠	نسمة	٢٩,١٦ %
المسلمون	١٠٦٥٢٠٠٠٠٠	نسمة	١٩,٤٣ %
الهندوس	٧٧٢٠٠٠٠٠٠	نسمة	١٤,٠٦ %
لا دينيون	٧٢٤٠٠٠٠٠٠	نسمة	١٣,٢٠ %
البوذيون	٣٥٠٠٠٠٠٠٠	نسمة	٦,٣٠ %
ملحدون	٢٣٩٠٠٠٠٠٠	نسمة	٤,٤٦ %
شوعيون	١٨٠٠٠٠٠٠٠	نسمة	٣,٢٨ %
ديانات آسيوية جديدة	١٢٥٠٠٠٠٠٠	نسمة	٢,٢٧ %
ديانات عشائرية	١٠٠٠٠٠٠٠٠	نسمة	١,٨١ %
سيخ	٢٠٠٠٠٠٠٠	نسمة	٠,٤١ %
يهود	١٨٠٠٠٠٠٠	نسمة	٠,٤٠ %
فرمسون	٨٠٠٠٠٠٠	نسمة	٠,١٧ %
بهائيون	٥٠٠٠٠٠٠	نسمة	٠,١١ %

(١) الأب انطوان شكري: وضع الكنائس المسيحية مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٥٦/٤٢ شباط ص١٢٤ وللأسف لم يذكر المصدر الأصلي لهذه الأرقام.

وفي تقسيم هذه الديانات على قارات العالم نرى الأرقام التالية:

آسيا: عدد سكنها ٣٢٣٣ مليون نسمة

منهم ٧٤٧ مليون هندوسي، ٦٦٨ مليون مسلم، ٣٣٢ مليون بوذي، ٣٠٠ مليون مسيحي.

أفريقيا: عدد سكانها ٦٨٢ مليون نسمة

منهم ٢٨٥ مليون مسلم، ٣٢٤ مسيحي، ١٥٤ مليون ديانات تقليدية.

أميركا: عدد سكانها ٧٤١ مليون نسمة

منهم ٥١٠ مليون كاثوليك، والبروتستانت ١١٥ مليون، الأرثوذكس ٦ ملايين.

أوربا: عدد سكانها ٧٩٧ مليون نسمة.

منهم مسيحيون ٥٤٢ مليون، كاثوليك ٢٨٧ مليون، بروتستانت ١٢١ مليون، أرثوذكس ١٣٠ مليون[1].

ويجب التنويه هنا إلى عدم دقة هذه الأرقام لعدم إيرادها لعدد المسلمين والديانات الأخرى في سياقها لعدد الطوائف في هذه القارات.

وللتقارب مع الموضوع الذي نطرقه نورد إحصائية للجماعات الدينية غير الإسلامية في الوطن العربي في منتصف الثمانينات من القرن العشرين.

الأقلية المسيحية	العدد الإجمالي في الوطن العربي	مناطق التركز الحالية بترتيب أهميتها
الروم الأرثوذكس	١٢٥٠٠٠٠	سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين، مصر
النساطرة (الآشوريون)[*]	٧٥٠٠٠	سوريا، العراق، لبنان
المونوفيزيون	٤٤٠٠٠٠٠	
وهم		
الأقباط الأرثوذكس	٤٠٠٠٠٠٠	مصر، السودان
السريان الأرثوذكس	١٥٠٠٠٠	سوريا، لبنان، العراق
الأرمن الأرثوذكس	٢٥٠٠٠٠	سوريا، لبنان، العراق، مصر
الكاثوليك	١٩٧٥٠٠٠	

(١) المطران كوركيس كرمو: إحصائيات مثيرة ومعلومات خطيرة التقرير السنوي للجنة الخيرية لطائفة الكلدان حلب عام ١٩٩٧ مصدر سابق ص٨٥٧و١٠٩.

[*] الآشوريون هم الذين يتكلمون اللغة السريانية الآرامية الممزوجة بكثير من الكلمات والتعابير الكردية والأرمنية والتركية والعربية بحكم اختلاطهم بشعوب المنطقة.

عن محمد السماك: الأقليات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٠ ص١٠٩.

الأقلية المسيحية	العدد الإجمالي في الوطن العربي	مناطق التركز الحالية بترتيب أهميتها
وهم		
الروم الكاثوليك	٢٧٠٠٠٠	لبنان، سوريا، مصر
السريان الكاثوليك	٥٥٠٠٠	سوريا، لبنان
الأرمن الكاثوليك	٥٠٠٠٠	سوريا ، لبنان
الأقباط الكاثوليك	١٠٠٠٠٠	مصر، السودان
الكلدان	٢٠٠٠٠٠	العراق، سوريا، لبنان
الموارنة	٨٥٠٠٠٠	لبنان، سوريا
البروتستانت	١٥٠٠٠٠	السودان، لبنان، سوريا، مصر[1]

معرفة الأقلية المسيحية

المسيحيون في العالم العربي هم الآن أقلية بالنسبة للبلدان التي يسكنونها، وهي في الأغلب موطنهم الأول، بعد أن مرت عليهم الكثير من الأحداث وجعلتهم في الوضع الذي هم فيه الآن.

وفي مفهوم الإنجيل المفروض في الأقلية أن تكون نخبة، ولا يعني ذلك أن الأقلية على شيء من التفوق لمجرد كونها أقلية، وإنما يعني أن الأقلية لا مبرر لوجودها ما لم تكن على شيء من التفوق. إن ميزة الإنجيل أنه يفرض المثل الأعلى واجباً. وإذا كان المثل الأعلى لا تطوقه إلا أقلية كانت روح المسيحية تعرض على كل مسيحي أن ينظر إلى الأمور ويحكم فيها وفق معايير تخالف تماماً معايير الطبيعة أو القانون. ولقد قام البرهان طيلة الثلاثة القرون الأولى على أن المسيحي الذي يعتمد عملياً معايير الإنجيل لا يثنيه الاضطهاد مهما اشتد عن التفاؤل والحماس حتى كان ذا فاعلية وكانت فاعليته لا تقهر وكان هو الملح وهو الخميرة. أما أن يتمسك المسيحي بأن يدعي مسيحياً وهو يحرّف الإنجيل ويخونه خيانة منكرة فقد أمسى ملحاً فاسداً مصيره أن يرمى به وتدوسه الناس. إذن ليس هناك من مشكلة في نظر المسيحية تسمى مشكلة الأقليات. مهما تفاوتت الفئتان عدداً وأياً كان تصرف الأكثرية فالأقلية إذا كانت بالفعل مسيحية فهي أجهل ما تكون للخوف والضغينة والانتقام وأعرف ما تكون للتفهم والتعاون[2].

---

(١) سعد الدين إبراهيم: المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٨ ص٢٣٩و٢٤٠ ورغم الجهد المبذول في تجميع هذه الأرقام، فإنها لم تورد اسم طائفة اللاتين في التعداد، علماً أن بعض الطوائف كانت أرقامها أقل من الواقع بالنصف.

(٢) سليم سركيس: لبنان وفلسطين والمسيحية توزيع مكتبة السائح ــ طرابلس ١٩٨٢ ص٧١ .

وإذا كان الإنجيل يقول ذلك، فإن في تعريف الأقلية ثلاثة أمور تشكل المحددات للوجود الأقلوي وهي: الدين والاثنية واللغة.

ونورد الإحصاء التالي الذي يخص سوريا لعام ١٩٧٨ حين كان عدد سكانها ٨,٣٧٥,٠٠٠ نسمة.

المجموعة الدينية	عدد السكان بالآلاف (أ)	النسبة المئوية من مجموع السكان
المسلمون: السنة (ب)	٦,٠٢٥	٧١,٩
الفلسطينيون	٠,٢٢٥	٢,٧
الشيعة: العلويون	١,٠٥٠	١٢,٥
الإسماعيليون	٧٠	٠,٨
الاثنا عشريون	٧٠	٠,٨
المسيحيون: الروم الأرثوذكس	٣٣٠	٣,٩
الغريغوريون والأرمن الكاثوليك	١٨٠	٢,١
السريان الأرثوذكس	١٠٠	١,٢
الروم الكاثوليك	٨٥	١,٠
السريان الكاثوليك	٤٠	٠,٥
الموارنة	٣٥	٠,٤
الآشوريون (النساطرة)	٣٠	٠,٤
البروتستانت	١٥	٠,٢
اللاتين	٥	٠,١
الكلدان	٥	٠,١
الدروز	٢٤٠	٢,٩
اليزيديون	١٥	٠,٢
اليهود	٤	–
الاثنية		
العرب	٧,٥٩٠	٩٠,٦
الأكراد	٥٠٠	٦,٠
الأرمن	٢٤٠	٢,٩
الترك	١٢٠	١,٤
الشركس	١١٠	١,٣
الآشوريون	٣٠	٠,٤
اليهود	٤	–
اللغوية		
العربية (ب)	٧,١٥٠	٨٥,٤
الكردية	٦٢٠	٧,٤
التركية	٢٠٠	٢,٤
الأرمنية	١٨٠	٢,١
السريانية	١٦٠	١,٩
الجنسيات		
الفلسطينيون	٢٥٠	٣,٠

(أ) تأخذ هذه الأرقام بعين الاعتبار اللبنانيين الذين هاجروا بين ٧٥و٧٨ والفلسطينيين الذين لجؤوا بين ٤٨ و١٩٧٨

(ب) هذه المجموعة تمثل الأكثرية[1]

ولمزيد من المقارنات نأخذ لبنان في العام ١٩٧٨ حيث كان عدد سكانه ٣٣٠٠٠٠٠ نسمة وتقسيمهم كالتالي:

المجموعة الدينية	عدد السكان بالألف	النسبة المئوية من مجموع السكان
المسيحيون: الموارنة	٨٥٠	٢٥,٨
الروم الأرثوذكس	٣٧٠	١١,٢
الروم الكاثوليك	٢٠٠	٦,١
الغريغوريون	١٢٠	٣,٦
البروتستانت	٢٥	٠,٨
السريان الكاثوليك	٢٢	٠,٧
اللاتين	٢٢	٠,٧
الأرمن الكاثوليك	٢٠	٠,٦
الآشوريون (النساطرة)	١٥	٠,٥
الكلدان	٨	٠,٢
المسلمون: السنة (ومنهم الفلسطينيون)	٨٩٠	٢٧,٠
الفلسطينيون	٣٠٠	٩,١
الشيعة	٦٠٠	١٨,٢
الدروز	١٥٠	٤,٥
اليهود	١٠	٠,٣
الآثنية		
العرب (أ)	٢٩١٠	٨٨,٢
(ومنهم الفلسطينيون غير اللبنانيين)	٣٣٠	١٠,٠
الأرمن	٢٠٠	٦,١
الأكراد	١٠٠	٣,٠
الآشوريون	١٥	٠,٥
اللغوية		
العربية (أ)	٣,٠١٥	٩١,٤
الأرمنية	١٥٠	٤,٥
الكردية	٨٠	٢,٤
الجنسيات		
اللبنانيون (أ.ب)	٢,٩٢٠	٨٨,٥
الأجانب	٣٨٠	١١,٥
(ومنهم) الفلسطينيون	٣٣٠	١٠,٠

(1)RD. Me Laurin: The Political Role of Minority Group in The Middle East. New York 1979 p.93

(أ) هذه المجموعة تمثل الأكثرية أي تزيد على نصف السكان.

(ب) ما بين ٧٠٠٠٠ و١٠٠٠٠٠ فلسطيني منحوا الجنسية اللبنانية وأدرجوا في تعداد اللبنانيين [1] وكان عدد سكان سوريا عام ١٩٤٦ (٢٩٠٠٥٠٠) بينهم ١٠٤ آلاف كاثوليك و٣٠٠ ألف أرثوذكس [2].

وإليك جدول إحصائي للطوائف الدينية في سوريا عام ١٩٥٠

روم أرثوذكس	١٥٣٨٨٦	روم كاثوليك	٥١٤٩٣
أرمن أرثوذكس	١٠٧٢٥١	أرمن كاثوليك	١٨٠١٠
سريان أرثوذكس	٤٤٩٧١	سريان كاثوليك	١٨١٢٧
نسطوريون[*]	١٠١٨١	كلدانيون	٥١١٦
بروتستانيون	١٢٦٦١	لاتينون	٦٣٤٨
		موارنة	١٥١١٢
	٣٢٨٩٥٠		١١٤٢٠٦
السنيون	٢١٩٨٠١٥	الدروز	١٠٠٥٥٤
الشيعيون	١٣٧٠٨	اليزيدون	٢٨٨٩
إسماعيليون	٣٢٨٠٤	يهود	٣١١٥٧
علويون	٣٥٥٤٦٨[3]		

وفي آخر إحصاء رسمي نشر في سوريا لعدد الطوائف كان في العام ١٩٥٦ وبه كان عدد السكان ٤٠٢٥١٦٥ نسمة ومن هذا الرقم يمكن استنتاج الأرقام الحالية:

روم أرثوذكس	١٨١٧٥٠	روم كاثوليك	٦٠١٢٤
أرمن أرثوذكس	١١٤٠٤١	أرمن كاثوليك	٢٠٦٣٧
سريان أرثوذكس	٥٥٣٤٣	سريان كاثوليك	٢٠٧١٦
	٣٥١١٤٤	موارنة	١٩٢٩١
		بروتستانت	١٢٥٣٥
موسويون	٣٢٠٣٤	نسطوريون	١١٧٦٠
		لاتين	٧٠٧٩
		كلدانيون	٥٧٢٣
			١٥٧٨٦٥
السنيون	٢٨٧٠٤٧٣	إسماعيليون	٤٠١٤٢
علويون	٤٢٩٤٤١	شيعة	١٥٦٨٧
دروز	١٢٥٠٦٣	يزيدون	٣٣٢٦[1]

(1)R. D. Me Laurin, Ibid p94

(٢) مجلة المسرة ــ حزيران السنة ١٩٤٨/٣٤ ك٢ ص٣٦.

[*] الأفضل وضعهم على خانة الكاثوليك.

(٣) مجلة المسرة ــ حزيران السنة ١٩٥٦/٤٢ شباط ص١٢٥.

إن أول ما يميز الأقلية هو خصوصيتها، إنها كيان اجتماعي يختلف عن الأكثرية مع أنهما موجودان في دولة واحدة. هذه الخصوصية ترتكز في شكل أساسي على تمايز ديني أو اثني أو لغوي. وقد يشمل التمايز اثنين أو أكثر من هذه المحددات.

كما أن ما يميز الأقلية هو عددها، فهي بتعريفها (أقلية) أي أنها عددياً أقل من الأكثرية، إنها من حيث الحجم البشري ــ الديمغرافي تشكل أقلية في دولة معينة وداخل مجتمع معين، داخل أمة معينة. إنها كسر أمة حده الأقصى أقل من نصف أمة. وبمقدار ما يكون الكسر طرفياً، أي أن حجم الأقلية هو طرفي وهامشي في المجتمع، يكون الصراع محدوداً لأن دور الأقلية يصبح هامشياً فتعتمد أسلوب الانزواء والانطواء «الأقباط في مصر»، وبمقدار ما يكون الكسر صلبياً، أي في صلب المجتمع أو معاد لا لنسبة النصف للمجتمع حيث يكون الصراع شديداً وشرساً.

وإذا كانت الأهمية تعطى للاتينة والدين واللغة والعدد فإن هذه المحددات ليست وحدها ما يشكل الأقلية. فلا يمكن القول إن هذه المحددات ليست وحدها ما يشكل الأقلية. فليس لأقلية أن تكون مختلفة تماماً عن الأكثرية بالاثنية ومتفقة معها في الأمور الباقية. كما أن معيار الدين لا يصح على الملحد أو الذي غير دينه. من هنا التفريق بين من هو «يهودي» ومن هو «إسرائيلي» في إسرائيل. كذلك بالنسبة إلى اللغة حيث يطرح موضوع الفارق بين اللغة الفصحى واللغة المحكية، بين الكلاسيكية والعامية، وفي كل من هذه الاشكالات تبدو المشكلة أقرب إلى أن تكون مشكلة اجتماعية ــ سياسية منها تقنية عملية. وعلى العموم فإن محددات الدين، الاثنية، اللغة، العدد تشكل قاعدة التمايز للأقلية وهي قاعدة قائمة بالقوة وتحتاج إلى عامل مهم ليجعلها تبرز بالفعل.[٢]

وفي الوحدات الاندماجية تتغير معادلة الأقلية والأكثرية في السلم السكاني. وعلى سبيل المثال كان الكاثوليك في لبنان الصغير (١٨٦١ــ١٩٢٠) يؤلفون ٦٦,٥ في المائة من سكانه. أما لبنان الكبير الذي ضم إلى لبنان الصغير أقاليم لم تكن فيها الأكثرية الكاثوليكية، فيمكن توزيع السكان البالغين مليونا وثلاث مائة ألف نسمة «عام ١٩٥١» بحسب الجدول التالي:

---

(١) المجموعة الإحصائية السورية لعام ١٩٥٦ السنة التاسعة مديرية الإحصاء وزارة الاقتصاد الوطني، دمشق ص١٨و١٩.

(٢) ن. خليفة صحيفة العمل ــ بيروت ١٩٨٥/٨/٢٥ ص٣.

المسيحيون الكاثوليك ٤٨٠ ألفاً	٣٧%	من السكان(*)
المسيحيون غير الكاثوليك		
الروم الأرثوذكس	١٠	في المائة (**)
الأرمن الغريغوريون	٥	في المائة
السريان الأرثوذكس	٠,٤	في المائة
الكلدان النساطرة	٠,١	في المائة
البروتستانت	١,٠	في المائة
مجموع غير الكاثوليك	١٦,٥	في المائة من السكان
غير المسيحيين		
اليهود	٠,٥	في المائة
العلويون	٠,٥	في المائة
الدروز	٦,٥	في المائة
الشيعيون	١٨,٥	في المائة
السنيون	٢٠,٥	في المائة
مجموع غير المسيحيين	٤٦,٥	في المائة من السكان(١)

(*) كان الرؤساء الذين تعاقبوا في رئاسة لبنان «سواء كان في عهد المتصرفية أم في عهد الجمهورية» مسيحيين، وفي غالب الأحيان كاثوليك، بل يمكن القول إننا إذا استثنينا رئاسة شارل دباس «٢٦ــ١٩٣٣» والرئيس أيوب ثابت «سنة ١٩٤٣» فقد كان رؤساء لبنان المدنيون كلهم كاثوليك منذ سنة ١٧٨٨ أي من عهد الأمير الشهابي بشير الثاني.
عن: جبرائيل مالك: لبنان الكاثوليك ورسالته الروحية في الشرق مجلة المسرة ــ حزيران السنة ١٩٥٢/٣٨ نيسان ص٢٠٦.

(**) انتشر النصارى الملكيون في لبنان، كالموارنة، في جميع أنحاء لبنان تقريباً، إلا أن الموارنة فاقوهم عدداً. وفيما كان معظم الموارنة من الفلاحين، آثر الملكيون الاستقرار والتجمع في المدن الساحلية والقرى الجبلية الكبيرة، حيث اعتاشوا، في الغالب، على التجارة والحرف، وكثيراً ما حملت الأسر المارونية اسم القرية أو المنطقة التي نشأت فيها. وهذه دلالة على تأصل الروح الاقليمية فيهم. أما الملكيون، فتنعكس النزعة الحضرية عندهم في أسماء الأسر الكبيرة التي تشير إلى مهنة ما، مثل حداد ولحام وصايغ وتجار وحايك.
عن: د. كمال صليبي: تاريخ لبنان الحديث مرجع سابق ص٢٢.

(١) مجلة المسرة ــ حزيران السنة ١٩٥٢/٣٨ نيسان ص٢٠٥.

وإذا كان الجدول السابق يعطي أرقاماً مئوية لعدد كل طائفة في لبنان فإن الجدول التالي ١٩٥٢ يعطي أرقاماً عددية للطوائف الدينية وهي:

سنيون	٢٧١٧٣٤	أرمن كاثوليك	١٤٢١٨
شيعيون	٢٣٧١٠٧	أرمن أرثوذكس	٦٧١٣٩
دروز	٨٢٢٦٨	كلدانيون	١٣٩٠
موارنة	٣٧٧٥٤٤	سريان كاثوليك	٥٩١١
روم كاثوليك	٨١٧٦٣	سريان أرثوذكس	٤٥٦٢
روم أرثوذكس	١٣٠٨٥٨	يهود	٥٩٩٣
بروتستانتيون	١٢٦٤١	أديان مختلفة	٦٦٨٣
لاتين	٤٢١٧		١٣٠٣٩٣٩[1]

وإذا ركزنا التطور البشري على طوائف معينة نرى مثلاً أن عدد الروم الكاثوليك في عام١٩٤٦ كان (٢٠٠) ألف يضاف إليهم ٧١ ألف منتشرين في العالم الجديد وهم من الأصل الخاص بهذه البلاد السورية العربية[2].

وكان عدد الكاثوليك عام ١٩٥٢ كالآتي:

العراق ١٢٥ ألفاً ونسبتهم ٢,٧٥ ومصر ٢٢٥ ألفاً ونسبتهم ١،١ والسودان ١٢٥ ألفاً ونسبتهم ١,٧ وسوريا ١٠٠ ألف ونسبتهم ٣،٣ والأردن ٣٠ ألفاً ونسبتهم ٣,٠ [3].

فيما كان عدد الكاثوليك في شرق الأردن بحدود ٤ إلى ٥ آلاف عام ١٩٣٢ أصبحوا في عام ١٩٥٠ (١١٥٠٠) نسمة. وفي مقابل هذا العدد يوجد أيضاً في تلك البلاد نحو ٨٠٠٠ لاتيني و٢٢٠٠٠ أرثوذكسي و١٢٠٠ بروتستانتي[4]

(١) مجلة المسرة ــ حزيران السنة الثانية والأربعون/١٩٥٦ شباط ص١٢٦.
(٢)مجلة المسرة ــ حزيران السنة ١٩٤٨/٣٤ ك٢ ص٣٦.
(٣)مجلة المسرة ــ حزيران السنة ١٩٥٣/٣٩ أيار ص٢٠٤.
(٤)مجلة المسرة ــ حزيران السنة ١٩٥/٣٦ ت٢ ص٥٦٠.

أما عدد السريان الأرثوذكس في عام ١٩٤٦ في آسيا «عدا الهند» ١٠٠ ألف[١]

والكنائس التابعة للطقس السرياني في عام ١٩٥٢ كانت:

بطريركية إنطاكية	١٢٠٠٠٠
كنيسة الملبار «الهند»	٦٥٠٠٠٠
السريان البروتستانت في الملبار	٣٠٠٠٠٠
بطريركية إنطاكية الكاثوليكية	٧٠٠٠٠٠
كنيسة الملبار الكاثوليكية	٧٠٠٠٠٠ [٢]

ويستفاد من جدول إحصائي للطوائف الدينية في فلسطين (١٩٥٢) أن عدد السكان كان:

يهود	١٢٢٥٠٠٠	لاتين	٥٠٠٠
مسلمون	١٣٥٠٠٠	موارنة	٢٠٠٠
روم كاثوليك	١٧٥٠٠	بروتستانت وأقباط	١٥٠٥
روم أرثوذكس	١٣٠٠٠	أرمن	١٠٠٠
			١٤٠٠٠٠٠ [٣]

بعد هذه البيانات والإحصاءات التي قدمناها في الصفحات الماضية نرى أن هناك مجالاً للطعن في صحة الأرقام الواردة في هذه الجداول، سواء من حيث الزيادة في العدد أو من حيث النقصان، ولكن ما ليس من مجال للطعن فيه هو وجود هذه الأقليات مهما كان عددها كبيراً أو صغيراً. وفي مقابل الأقلية هناك الأكثرية، والأكثرية هي كل ما ليست الأقلية. وفي حين تكون الأقلية أكثر بروزاً لأنها أكثر اختلافاً وتمايزاً وأكثر تماسكاً لأنها أكثر تعرضاً، تكون الأكثرية أكثر هيمنة وأكثر رحابة واتساعاً في خياراتها الأيديولوجية القومية. فالأكثرية تتمسك دائماً بأيديولوجيتها القومية كتعبير عن سلطانها السياسي وعن وحدة مجتمعها وتماسكه وبالتالي عن قوة الأكثرية وعظمتها.

والشيء اللافت للانتباه، وربما كان تجربة رائدة، هو أن الأقلية السورية تبنت أهدافاً في القومية والوحدة جعلت الأكثرية تتهافت إليها مما فرض الوحدة الوطنية القومية فوق أي اعتبار.

---

(١) دليل المسرة ــ حريصا السنة ١٩٤٧ ص٣٥.

(٢) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ٣٩ /١٩٥٣ أيار ص٢٨٥ مرجع سابق.

(٣) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ٣٦ /١٩٥٠ نيسان ص٢٤٨.

ولكن مستقبل المسيحية في البلدان العربية مشروط بانخراطها الكامل في حياة هذه البلدان، وأن تكون جاهزة لتحمل المصير نفسه مع المسلمين، مهما كان هذا المصير، دون بناء أوهام زائفة على الغرب، الذي لا يهمه سوى مصالحه الاستراتيجية التي تستفيد بصورة واسعة ومجانية من «العزلة الطائفية» ومن المشاعر السلبية «عُصاب الأقلية»، ومن «الشعور بالتفوق» و«الهيمنة» و«التفرد» بالوطنية على «الآخر» أيضاً، الذي يتحول بين فترة وأخرى إلى اعتداء ومطاردة وحتى إلى «التهجير الجماعي»، والاتهام بـ «العمالة والخيانة»[1] .

وبالطبع لا تعاني الأقلية المسيحية من «عصاب الأقلية» لأن سر نجاحها هو في اندماجها بالمجتمع والتفتح على الحضارات دون وضع «تابو» مسبق لأي منها، وهذا كان لها منذ القدم وظهر جلياً أثناء صعود النهضة العربية في صدر الإسلام، وهي تسعى جاهدة، الآن ومستقبلاً، لتحافظ عليه.

(١) من مقدمة المترجم د. خلف محمد الجراد لكتاب اليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢١٥ ص١٦.

المسيحية
وانقسام الطوائف

المسيحية شأنها شأن الطوائف الأخرى، نشأت واحدة ومن ثم ما لبث أن دب بها الانشقاق في مفاهيم المسيح ورسله ومرد ذلك إلى التباين في التفسير والتأويل، فكان أن تعددت أسماء كنائسها: الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية التي تجر معها عشرات الكنائس بتسميات مختلفة.

ومن سوريا نشأت الكنائس منذ عهد المسيح ورسله الأطهار، ولها فيه قواعد ثابتة وسلطات مرتبة، وإدارة منظمة، وعوائد وتقاليد طقسية، ومدارس وديورة، وسائر مظاهر الحياة الكنسية النظامية.

فالكنيسة تواصل عمل المسيح المتجسد وتكمله على مدى التاريخ، وهي قبل كل شيء تتمسك بالتقليد ولا تهمله، بيد أن احترامها هذا للماضي لا يعني إعادة ما كان قبلاً إعادة ميكانيكية، بل إنما التقليد المسيحي تفتح حي، واستنباط لا نهاية له، وفيضان الحياة الإلهية في البشر بلا انقطاع أو توقف.

والكنيسة السورية تحترم التقليد احتراماً بليغاً، وإذا كانت لا تحقق في ذاتها ـ في حياتها اليومية العملية ـ كل ما ينجم عن هذا الاحترام من مظاهر الحياة الدينية، فليس ذلك عن نقص في إيمانها أو عن حياء طبيعي، وإنما توقفها إلى ذلك فطنة قد تكون مفرطة لكنها وليدة الاختبار الأليم في تاريخ البطريركيات الشرقية. فالكنيسة في الشرق لم تكف يوماً عن الجهاد للذود عن إيمانها المقدس ولصيانة وديعة الوحي الإلهي.

وتطورت الكنيسة المسيحية في سوريا من ناحيتين: عامل اللغة والليترجية، وعامل الليترجية والقومية، فالعامل النوعي انعكس في اتجاهين: الاتجاه اليوناني على الساحل وفي المدن

التي تأثرت بالهينية، والاتجاه السرياني في الداخل. وقد ظهرت الكنيسة التي تستعمل اللغة السريانية منذ القرن الثاني. وبانتشار المسيحية في القرن الثالث فرضت السريانية نفسها تجاه اللغة اليونانية. وقد أشار التحول عن اليونانية والعودة إلى الآرامية في العصر البيزنطي إلى اليقظة الجديدة بين السوريين وكان تجدد الاهتمام باللغة السامية القديمة دليلاً على إحياء للوعي القومي كما كان رد فعل ضد الوثنية.[1]

واللغة في كل شعب تتأثر بذهنية الأمة حتى لقد نجد في كل لغة تعابير يتعذر وجود مثلها في غيرها لتأدية المعنى الواحد. وتاريخ العقيدة المسيحية قد شهد عبر الزمان عدداً من تلك التعابير التي خلقت جواً من الجدل.

وقد لبث الشرق في مضمار الثقافة محافظاً مقلداً فيما الغرب مضى مجدداً على صعيدي التشريع والتفكير، وكان من ثم الحركة الكلاسيكية التي أخذت في التعليل والتحليل والاستنتاج.. وقف الشرق عند النصوص المنقولة عن الآباء القديسين فيما الغرب أراد التجديد والنظر في كل شيء مستقلاً.

وفيما يخص العامل الآخر وهو الليترجية والقومية، نرى أن الليترجية ليست مجرد طقوس بل هي تعبير عن روح الجماعة ونفسيتها. وفيما نرى الغربي يميز بين الليترجية والإيمان نرى الشرقي يتمسك بالكنيسة الظاهرة التي خبرها ويوحد بينها وبين القومية والتقليد العيلي، فالكنيسة والإيمان والليترجية عنده وحدة حية لا تتجزأ.

وهذا الوضع سبب الإحراج للطوائف الشرقية التي تعتنق الإيمان الكاثوليكي وتخضع لروما مع القيام على أوضاع ليترجيتها وضمن إطار هذه الليترجية، مما جعل الطرف الآخر ينعتها بالانحراف لهذه الحقيقة القومية الدينية التي ينصهر فيها الإيمان والليترجية معاً.

وكان للانقسامات العديدة التي انتابت الكنيسة الشرقية منذ القرن الرابع، مع بعض العوامل القومية السياسية، أن أدى ذلك إلى تجزئتها إلى كنائس متعددة، مما جعلها في حالة من التحذر والتيقظ تجاه سائر الفرق المسيحية[*] و«منذ أن أعلن السلم القسطنطيني وجد في صلب

---

(١) د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة ــ بيروت ١٩٨٢ الجزء الأول ص٤٠٨ مرجع سابق.

(*) يقصد بالكنائس الشرقية التمييز بينها وبين الكنيسة الأرثوذكسية أو الكاثوليكية، وتعود بأصولها البعيدة إلى سنة ٤٥١ حين عقدت الكنيسة مجمعها المسكوني الخلقيدوني لمناقشة أفتيخيوس القائل بالطبيعة الواحدة في المسيح، وحجته أن الطبيعة البشرية عندما التقت فيه بالطبيعة الإلهية ذابت فيها وتلاشت فلم يبق في المسيح سوى الطبيعة-

الكنيسة ما يشبه عالمين كنسيين لكل منهما مقوماته: العالم الكنسي الشرقي والعالم الكنسي الغربي. ومضى كلاهما يعقد المجامع الخاصة على غير تساوق أحياناً في النغمة. ثم كان تلقيب القسطنطينية بـ «رومة الثانية» خلال المجمع المعقود فيها سنة ٣٨١، تأكيداً لما صار لأسقفتها من الحق بالتقدم الشرفي بعد أسقف رومة. وذهبت الكنيستان تصطبغان أكثر فأكثر هذه بصبغة شرقية وهذه بصبغة غربية، وتفاقم الأمر عهد اضطهاد الصور ــ بالرغم من تدخل رومة عن دعوة من الشرق وأنصارها للأيقونات، وذلك من جرى تدخل شاذ في الشؤون الكنسية من جانب شارلمان حامي الكنيسة الغربية، ولا سيما فرضه في جميع كنائس المملكة زيادة «والابن» في قانون الإيمان، وإطراحه التعبير الشرقي «بالابن» على كره من أسقف رومة. وتطورت الذهنية في القسطنطينية بشأن حقوق أساقفتها ثم بطاركتها حتى لقد تصورت المساواة مع كنيسة رومة في حين أن السلطة في رومة منبثقة من واقع بطرس وفي القسطنطينية من واقع قسطنطين».[1]

إن الانتصار الذي حققته المسيحية واعتناق الرؤساء السياسيين لها مع ما حققه ذلك من أمان لها وانتشار لرسالتها جرها إلى الانقسام اللاحق: الأرثوذكسية والكاثوليكية. وقد «حرر قسطنطين الكنيسة بمرسوم ميلانو سنة ٣١٣ فتهيأ لها أن تعيش حرة في نطاق المملكة، ولكن قسطنطين نقل العاصمة إلى بيزنطية ونقل معه الذهنية والوثنية والنظام الوثني اللذين يخولان القيصر شيئاً من السلطان على الكنيسة. فمضى القيصر في العاصمة الجديدة يعين البطاركة ويعدل حدود الأبرشيات ويخلق الكراسي الأسقفية، ويدعو إلى المجامع ويسهر على مجرى تداولاتها ويعلن ختامها ويضفي على مقرراتها قوة تشريعية ضمن إطار المملكة. وكان من ثم

=الإلهية لا غير. على أن المجمع حدد العقيدة على ضوء الوحي وإيمان الكنيسة المتواتر وأعلن وحدة الأقنوم أو الشخص وثنائية الطبيعة في المسيح: فالطبيعيان الإلهية والبشرية، كاملتان، متميزتان غير متمازجتين، متحدتان في أقنوم الكلمة ابن الله المتأنس.

وقد رفضت هذه الكنائس الشرقية تحديد المجمع وانشقت عن الذين أخذوا بتحديده، وهذه الكنائس هي:

١- الكنيسة السريانية وتسمى خطأ بالكنيسة اليعقوبية نسبة إلى يعقوب البرادعي الذي حمل لواء الدعاوة لها ونظمها ورسخ بنيانها ولا سيما بعد أن سمي أسقفاً سنة ٥٤٣، لها فرع في الهند منذ السنة ١٦٥٣.

٢- الكنيسة الأرمنية وقد أعلنت رفضها للمجمع بوجه رسمي في مجمعها الوطني في «وافرشابات» سنة ٤٩١ ثم لأسباب سياسية وقومية انشقت على نفسها إدارياً سنة ١٤٤١ فأمسى عليها جاثليقان الواحد ينتسب إلى «اتشميازين» والآخر إلى «كيليكية».

٣- الكنيسة القبطية في مصر.

٤- الكنيسة الحبشية في اثيوبيا.

(١) الأب كونكار البلجيكي: بعد تسع مائة سنة، مجلة المسرة ــ حريصا السنة الأربعون /١٩٥٤ نيسان ص٢٤٦.

الخطر بأن تتبلور في القيصر خاصيات الكنيسة القانونية وما لها، بحكم كونها جماعة، من وجوه السلطة فترتبط شؤون الكنيسة بشؤون الدولة وحياتها ومصيرها بالقيصر وسلطانه. ولذلك ما عتم الأمر حتى نشب الخلاف بين أساقفة رومة والقياصرة إذ رفض الأولون على التشريع الملكي أن يضم في نطاقه القوانين التي تنظم حياة الكنيسة. وتفاقم الخلاف بقدر ما الأحوال السياسية والتاريخية أولت البابوات أن يستقلوا عن القياصرة، ويؤكدوا بوجه أقوى حق الاستئثار بتنظيم الحياة القانونية، زد على ذلك أن الموقف الديني في العاصمة الجديدة أخذ يتبلور في ذهنية جديدة ويعمل بوحي هذه الذهنية: إن ما كان لرومة «الأولى» تراث النفوذ والامتيازات الخاصة، انتقل إلى القسطنطينية «رومة الثانية» بحكم انتقال القيصر إليها».[1]

وحين جاء الفتح الإسلامي للقسطنطينية وكان «ليون الطرابلسي» المسيحي قائد حملة الفتح الأموية الأولى الزاحفة على القسطنطينية من البحر، بدت مياهه لا رومية ولا بيزنطية على نحو ما كان، حيث تبدلت الأوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية، وتضاءلت العلاقات بين الشرق والغرب. وقد سعت كنيسة القسطنطينية أن تجمع تحت سلطانها مسيحيي الشرق وكان لها ذلك في البعض فيما بقي السريان لوحدهم ــ في سوريا ــ والأقباط ــ في مصر ــ غير وجلين من التغيرات التي حصلت، مما زاد من شقة الخلاف توسعاً.

في هذه الأثناء كان هناك تطورات كبيرة تحدث في الواقع العملي، منها الفكرة السائدة آنذاك أن الإمبراطور في النصرانية واحد كما أن الله واحد، وأن الصولجان الصريح قد انتقل من رومة إلى القسطنطينية. كما أتت الحروب الصليبية واستيلاء الفاتحين على الأماكن المقدسة لتزيد الانفصال تفاقماً وشراً، حيث وقف الشرق منذ الحملة الأولى في وجه الغرب وقفة تنكر وحذر، بل وقفة مقاومة وعداء، وتكرر ذلك في الحملتين الثانية والثالثة، حتى كانت الحملة الرابعة فحوصرت القسطنطينية وعبث بها فأثار هذا العبث الجائر غضب بابا رومة، وحمل بعنف على الفاتحين.

وقد سمي أصحاب الطبيعة الواحدة المؤمنين الأرثوذكسيين في هذه البلاد «ملكيين»[*] بعد المجمع الخلقيدوني، أي تابعين الملك الذي كان يحامي عن حقائق الإيمان، وخصوصاً في

---

(١) الأب كونكار البلجيكي مجلة المسرة مصدر سابق. ص٢٤٢.

[*] أطلق اسم «الروم الملكيون» أول ما أطلق في غضون التاريخ، على المسيحيين من ذوي الطقس البيزنطي في الشرق الأدنى، وتضاربت الآراء في أصلهم وتباينت في تسميتهم، ولكن الحقيقة أن سكان هذا الشرق الأدنى ليسوا من أصل واحد، إنما هم مزيج من مخلفات الشعوب العديدة التي تعاقبت في الحكم على هذه الرقعة من الأرض كالفينيقيين والآراميين والكنعانيين والإغريق والسريان والعرب حتى الأوروبيين أنفسهم. ولما استولى العرب على الشرق نعتوا بعض المسيحيين بـ «الروم» لأنهم كانوا على مذهب «رومة الجديدة» أي القسطنطينية كما نعتوهم في أفريقيا الشمالية بـ «الرومي» لأنهم على مذهب رومة القديمة. ثم ثبتت عليهم التسمية بسبب وحدة طقسهم البيزنطي في سوريا ومصر واليونان.

القرن السابع لما ضعف سلطان الأرثوذكس ونفوذهم في البطريركيات الشرقية: الأسكندرية والإنطاكية والأورشليمية بدخول العرب إليها اتجهوا أكثر فأكثر لاحثين إلى نفوذ بطريركية القسطنطينية الأخذ حينئذ في الانتشار حتى أفضى بهم الأمر في القرن الثالث عشر إلى أن يتخذوا ليتورجية تلك البطريركية تاركين ليتورجيتهم لأصحاب الطبيعة الواحدة.

إعلان الانشقاق

كانت رومة والقسطنطينية تتحاشيان الاحتكاك خشية نشوب مصادمات عنيفة بينهما إلى أن كان عام ١٠٤٢ حين تسنم ميخائيل كيرولاريوس الكرسي القسطنطيني وهو الذي هجر العالم وترهب في أحد الأديار نتيجة لمؤامرة فاشلة، وقد لعب الدور الأهم في الدولة كما في الكنيسة، حتى لم يعد يقبل رئاسة أحد، ولا يرضى إلا التصرف مع الملك فعل الند مع نده حتى في الشؤون المدنية والسياسية.

وخلال عام ١٠٥٣ كانت النفوس قد حقنت تماماً بين القسطنطينية ورومة، وظهر فجأة في هذا التاريخ في مملكة الروم الشرقية نص رسالة مطولة بعث بها لاون أسقف أخريدة اليوناني إلى يوحنا أسقف تراني في إيطاليا طواها على انتقاد لاذع لعادات اللاتين المخالفة لعادات اليونان الطقسية، فأثار بين الشعب والرهبان الاضطراب الفكري. وكانت هذه الانتقادات بحد ذاتها كفيلة بإشعال الفتيل بين هاتين البطريركتين. ففي رومة كان يجلس على الكرسي البطريركي إذ ذاك لاون التاسع، وما كادت هذه الانتقادات تصله وهي تتعلق بالفطير بدل الخمير، والصوم يوم السبت، وإباحة المخنوق، والامتناع عن ترتيل الليلويا في الصوم الكبير، حتى كتب إلى الملك قسطنطين التاسع في القسطنطينية «كانون الثاني ١٠٥٤» موضحاً بحزم مبدأ الرئاسة الرومانية مدافعاً عن الكرسي الرسولي، فاعتذر ميخائيل كيرولاريوس عن ذلك. ولكن تتابع الأحداث جعل من يوم ١٥ أو ١٦ تموز ١٠٥٤ يوماً لا ينسى، ذلك أنه فيما كان الشعب والأكليروس محتشدين في كنيسة آحياصوفيا لحفلة دينية، أقبل السفراء أو رسل رومة فجأة وشقوا لهم طريقاً في وسط الشعب حتى الهيكل الكبير، ومضوا يخطبون في الناس منددين بعناد البطريرك. والسفراء هم ثلاثة مندوبين بعثوا من رومة للعمل على حسم الخلاف وإخماد جذوة الشر، فحين وصلوا إلى العاصمة في أوائل نيسان ١٠٥٤ حتى كان البابا قد انتقل إلى رحمة الله، وكان على رأس الوفد الكردينال همبرت.

ووضع هؤلاء السفراء الثلاثة على الهيكل صك الحرم لكيرولاريوس ومشايعيه، وخرجوا من حيث أتوا. «وبعد يومين غادروا العاصمة ليعودوا إلى رومة، فتأثر الملك شديداً وسعى لإعادة المندوبين إلى القسطنطينية، وبذل الجهد العظيم لحمل البطريرك على قبول مواجهتهم، فرضي، غير أن الملك أبى إلا حضور المقابلة بنفسه لسماعه أن البطريرك دبر مكيدة للانتقام منهم. فرض كيرولاريوس الشرط، وأصر قسطنطين عليه، عندئذ حوّل البطريرك نقمته على الملك نفسه وأثار في العاصمة فتنة كادت تودي بعرش قسطنطين وحياته. فخاف الملك ودعا المندوبين إلى السفر وكتب إلى البطريرك يستغفره، ووسط لديه الوسطاء، وأخذ على نفسه أن يقر كل ما يريد البطريرك فعله. فرضي كيرولاريوس عنه، وبادر في الحال إلى عقد المجمع المستديم للكرسي القسطنطيني. وفي ٢٥ من تموز رشق بالحرم «الصك الكفري» والذين أنشأوه أو ساهموا في إنشائه، وقيل إنه أحرق في اليوم نفسه في احتفال عظيم، بيد أن البطريرك يقول في إحدى كتاباته إنه أدرجه في محفوظات الكنيسة «ليكون عاراً أبدياً على الذين تجاسروا على وضعه» وهكذا فبين ١٥ و٢٥ تموز ١٠٥٤، وقع الحادثان اللذان تم بهما انفصال الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية»[1].

واليوم ينظر الكثير من المؤرخين إلى هذه الحوادث على أن تبعاتها أتت من المندوبين الرومانيين، ولا سيما على زعيمهم الكردينال همبرت، أولاً لسلوكهم الشاذ خلال قيامهم بالمهمة التي أنيطت بهم، وثانياً لأنهم تجاوزوا حدود صلاحياتهم المشروعة. أما كونهم سلكوا في شذوذ، فلأنهم لم يتصرفوا كسفراء مبعوثين للمفاوضة في السلام بل كقضاة سامين أتوا ليصدروا الحكم المبرم، الذي لا استئناف له ولا تمييز، في القضية المطروحة بين أيديهم، فكانوا يجادلون خصومهم بكل غلظة وغطرسة، شاتمين ومهددين من لم يكن على رأيهم، ناعتين مخالفيهم بكل مهين، مرتكبين في حداهم أخطاء لاهوتية وتاريخية فاضحة، متوهمين أن لهم في الملك السلاح الكافي لقهر البطريرك والشعب..

و«أما تجاوزهم حدود صلاحياتهم المشروعة فلأنهم أقدموا على إصدار الحرم فيما الكرسي الرسولي شاغر، لأن البابا لاون التاسع كان قد توفي منذ ثلاثة أشهر، أي في ١٣ نيسان، وخلفه فيكتور الثاني ولم يعين إلا في شهر أيلول التالي، ولم يتسلم فعلاً وظيفته في رومة إلا في نيسان من سنة ١٠٥٥. ومن ثم فالقرارات التي اتخذها والتصرفات التي انتهجوها لا تقع مسؤولياتها إلا عليهم وحدهم، إذ لا يجوز القول بأن البابا المتوفي قد وافق من قبل على القرارات

(١) بدون توقيع: أسباب الانشقاق بين الشرق والغرب، مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٥٦/٤٢ كانون الثاني ص٩.

الخطيرة التي كانوا مزمعين أن يتخذوها، ولا على التصرفات الشاذة التي كانوا مزمعين أن ينتهجوها، إنهم ما أرسلوا قط لمثل هذا ولا سيما وأن ما انطوى عليه صك الحرم من لهجة قاسية وتهم خيالية، بجانب غيرها صحيحة، يتنافى إلى أبعد حد مع روح لاون التاسع ومحبته للكنيسة الشرقية».[1]

هذا الانفصال حرّ إلى ذيول كثيرة منها أن الشرق نصب كعدو تجاه الغرب وعزل عن قسم كبير من كنيسة المسيح. كما زادت الحروب الصليبية تلك الحالة تعقداً حتى استحكم الخلاف، فقضي بالعقم على كل محاولة تصالح أو تقارب بين الغرب والشرق.

إن الانفصال بين رومة والقسطنطينية كان، بحسب ف. دفرنيك على الخصوص، أقل صراحة في أطواره الأولى مما تبينه الكتب القديمة، وقد جعلت إنطاكية تتبع سير بيزنطية وتميل إلى الاتحاد مع القسطنطينية عن الاتحاد مع رومة. ومن الأكيد أن هذا الانفصال لم يُبَت قطعاً، فإن لدينا براهين تاريخية على أن بطاركة قد استمروا متحدين مع رومة. وكان الحال هكذا إلى سنة ١٧٢٤ إذ انتخب سارافيم طاناس بطريركياً ودعي كيرلس السادس، وكان كل حلفائه الشرعيين، بطاركة إنطاكية، متحدين مع رومة إلى يومنا هذا.

وكان كيرلس الخامس «١٧٢٠» قد أعلن قرارات مجمع فلورنسة، ومع أن خليفته قد اضطهد الكاثوليك، فقد اعتلن غير واحد من أساقفة ذلك الوقت كاثوليكياً صريحاً، والآباء اليسوعيون قد اعترفوا بجميع الأساقفة الملكيين رؤساء روحيين على أبرشياتهم.

أما أكثر الكاثوليك نشاطاً فكان افتيمس مطران صور الذي كابد السجن والاضطهاد لموقفه الكاثوليكي. وكان خال سارافيم طاناس هو الذي أرسله إلى مدرسة البروبغندا ليدرس الدروس الأكليركية ما بين سنة ١٧٠٢ و١٧١٠ فكان انتخاب سارافيم بطريركاً سنة ١٧٢٤ حركة اتحاد فاصلة باتة، إلا أن هذا الانتخاب قد أثار عاصفة هائلة في صفوف المعارضين، فظهر منذ ذلك الحين الأكليروس المعارض، وقطع كل شركة وكل صلة مع رومة. وإذ كانت تعضده الكنيسة القسطنطينية والحكومة التركية، أصبح تابعوه أكثر من الملكيين الكاثوليك.

إن الملكيين يستعملون اللغة العربية في الليتورجية البيزنطية ولا يستغنون عن اللغة اليونانية حيناً بعد حين في الإعلانات، وذلك استعمال شائع، غير أن ما يتغلب من اللغتين يكون بحسب الأماكن والأحوال والأشخاص.[2]

---

(١) بدون توقيع: أسباب الانشقاق بين الشرق والغرب، مصدر سابق ص١٠.

(2)The Eastern Churches Quarterly. Vol. V No.11, July - September 1946 pp.331 - 342.

أما طائفة اللاتين فكانت إدارتها في يد الرهبان الفرنسيسكان حراس الأماكن المقدسة. وكانت الطائفة حينئذ مؤلفة من بعض الأجانب الذين تبلّدوا في الشرق، ومن بعض الروم والموارنة الذين انحازوا إليهم لمصالح دنيوية. وبقيت الحال كذلك إلى مطلع القرن التاسع عشر حيث بدأت الرهبانات اللاتينية تكثر في الأرض المقدسة، فتكاثرت الخلافات بينها وتكاثرت عليهم المظالم والمغارم من قبل الحكام العثمانيين، فشعروا بالحاجة إلى مثل الكرسي الروماني المقدس ليدبر الأمور ويسهلها.

«وفي سنة ١٨٤٧ تقرر إيفاد هذا الممثل، ووسمه بالسمة الأسقفية، وإعطاؤه صفة القاصد الرسولي(*) على مثال القاصد الذي كان في حلب. وكانوا في حيرة في أمر اللقب الذي يعطى له، أيكون «أسقف أورشليم» أم يكون أسقفاً شرقياً بوظيفة «نائب رسولي بطريركي». وإذ كانت النية متجهة أيضاً إلى جعله ممثلاً لكرسي روما الرسولي لدى السلطنة العثمانية وإلى إنشاء مقر رسمي له في القسطنطينية نفسها، رأوا من الحسن أن يعطى لقب «بطريرك أورشليم» لكي لا يكون مركزه أدنى من مركز البطاركة الشرقيين الذين سيتعامل معهم. وهكذا تم تعيين البطريرك الأول»(١).

ومن هذا الانفصال يستخلص من الماضي عبرة للمستقبل، ويلفت النظر إلى ظاهرتين هامتين مؤدى الأولى منهما أنه لا يمكن حصر المسؤولية، في مسألة الانفصال وعواقبه، في أحد الطرفين دون الآخر. بيد أن هناك اعتباراً هاماً لابد من التصريح به، هو أن الكنيسة المسيحية ليست مجموع كنائس تقوم على النظام الفدرالي وليست أعضاء مستقلاً بعضها عن بعض، بل هي جسم له رأسه وأعضاؤه، ولكل من الرأس والأعضاء مهمته الخاصة ووظيفته الخاصة.

(*) إن لفظة القاصد الرسولي تطلق على الشخص الذي ينوب عن الكرسي الذي أسسه، أو كان عليه أول أسقف من رسل المسيح وتلاميذه و«الكراسي الرسولية التي تعترف بها الكنيسة الأرثوذكسية كما تعترف بها الكنيسة الكاثوليكية، هي بحسب ترتيبها التاريخي: كرسي أورشليم الذي كان أول أسقف عليه القديس الرسول يعقوب أخو الرب، وكرسي إنطاكية الذي أسسه القديس بطرس هامة الرسل، وكرسي رومة الذي أسسه القديس بطرس أيضاً ونقل مركزه إليه ومات فيه شهيداً، وكرسي الأسكندرية الذي أسسه القديس مرقس الإنجيلي تلميذ بطرس الهامة، ويضيفون كرسي القسطنطينية وينسب تأسيسه إلى شقيق القديس بطرس»[×]

[×] بدون توقيع: رومة أم الكنائس مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٥٠/٣٦ ت٢ ص٢٧١.

(١) د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي دار الثقافة ــ بيروت ١٩٨٣ الجزء الثاني ص٢٦٣ مرجع سابق.

التزاحم اللاتيني على كنائس الشرق

كان من النتائج الفورية للحروب الصليبية امتداد الكنيسة اللاتينية إلى الشرق المسيحي، بعد أن كانت الغلبة فيه للأرثوذكسية حيث كان يوجد بطريركية في القدس و«لا تزال الأخوية الكرملية التي أسسها أحد الصليبيين سنة ١١٥٧ وسماها باسم أحد رجاله تعمل في سوريا الطبيعية. وقد أنشئت اثنتان من الأخويات الرهبانية هما الفرنسيسكان والدومينيكان في أوائل القرن الثالث عشر، وأنشأت كل منهما لنفسها فروعاً في كثير من المدن السورية. وفي السنوات الأخيرة من ذلك القرن كان للفرنسيسكان في بيروت كنيسة كبيرة. وفي سنة ١٢١٩ زار مؤسس الأخوية الفرنسيسكانية القديس فرنسيس الأسيسي، بلاد الأيوبين في مصر، وأجرى مناقشة دينية عقيمة مع الكامل،وكتب أسقف دومينيكاني هو وليم الطرابلسي رسالة من أوفى رسائل العصور الوسطى بشؤون المسلمين موضحاً المواطن التي يتفق فيها الإسلام مع المسيحية، وموصياً باستخدام المرسلين بدلاً من الجنود لاستعادة البلاد المقدسة».[1].

وتكررت زيارة البعثات اللاتينية إلى الشرق العربي مستمدين صلاحياتهم من السلطة المحلية أية كانت، واعظين في الكنائس أية كانت، وهذا ما بدا الأمر في القرن السادس عشر، وكان المفروض آنئذ أن أولئك المرسلين ما كانوا سوى مساعدين للسلطة المحلية التي كانت ضعيفة في تلك الأيام.

«ولكن روح السيطرة تسلط على البعض فأرادوا ليتنة الكاثوليك أو العائدين إلى الكثلكة، ولهم في ذلك مآرب، والبعض كانوا يعتقدون في جهل مطبق أن الطقس اللاتيني هو الأفضل لكونه الطقس الذي يتبعه الحبر الأعظم، وغيرهم كانوا يظنون أن وحدة الكنيسة وسلامة الكثلكة تقتضي، فضلاً عن وحدة المعتقد، وحدة الطقوس والأنظمة وغير ذلك. فهب الأحبار العظام والدوائر الرومانية العليا يدافعون عن وجوب احترام التراث الشرقي الخير، بما فيه الطقوس والأنظمة، ويحرمون على المرسلين تحت طائلة أشد العقوبات الكنسية استمالة الشرقيين، سواء كانوا من الكاثوليك الأصليين أم من العائدين إلى الكثلكة، أو حضهم أو

(١) مجلة المسرة ــ حريصا السنة الثالث والأربعون ١٩٥٧ آذار ص٢١٥.

الضغط عليهم بأي نوع كان لانتحال الطقس اللاتيني. بل أجبروا الشرقيين الذين، لعدم وجود كاهن شرقي من طقسهم، قد تعمدوا على يد كاهن لاتيني، أن يرجعوا إلى طقسهم الأصيل.. ولكن كثيرين قد أصموا آذانهم عن السماع ظناً بأن أسلوب الليتنة هو الأفضل في جمع قطيع المسيح. فكان لابد أن ترتفع أصوات السلطة المحلية الشرقية مستنكرة التصرفات الشاذة التي كان يقوم بها كثيرون من أولئك المرسلين. وكان لأحبار الروم الكاثوليك القسط الأوفر في المدافعة عن حقوق الشرقيين، ووجوب احترام طقوسهم وقوانينهم وعوائدهم».[١]

إذن، وصول رسل الكنيسة اللاتينية إلى سوريا أثار الكثير من الامتعاض لدى كافة الطوائف هنا، وعلى رأسها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وهي من ضمن الكنائس الكثيرة التي انضمت إلى الكثلكة في القرن السابع عشر، لهذا نرى أن هناك نصوص كاثوليكية تقول إن كل مرسل لاتيني سواء كان من الأكليروس العالمي أو القانوني يحمل شرقياً كاثوليكياً كان أم غير كاثوليكي، عن طريق المشورة أو المساعدة، على اعتناق الطقس اللاتيني يحل به الرباط عن الإلهيات بذات فعله، وكافة العقوبات المفروضة في الرسالة «ديماندااتام» ويجرد من الخدمة ويطرد منها. ولكي يكون هذا الرسم معروضاً ويستمر ثابتاً ومتبعاً يؤمر بتعليق نسخة منه في الكنائس اللاتينية، وقد كان ذلك في نهايات القرن التاسع عشر (١٨٩٤) بموجب رسالة البابا لاون الثالث عشر في «شرف الكنائس الشرقية».

ويرى كاهن بلجيكي «إن المسيحي الشرقي الذي يخالف أوامر الكرسي الرسولي الروماني الصريحة ويهجر طائفته وبطريركته لينضم إلى الطقس اللاتيني لا يلبث أن يصبح في هذا المشرق فرداً منفصلاً لا تأثير له حقيقياً في المجتمع المسيحي الذي حوله. ومن ثم، إذا استثنينا الحوادث الفردية التي توافق عليها السلطة الكنسية الشرعية، فكل انتقال من هذا النوع من الطقس الشرقي إلى الغربي يمكن أن يعد تخلياً عن مصالح المسيح في الشرق».[٢]

ومع ذلك «يذهب الكثيرون إلى أن جميع هذه العقوبات قد ألغيت بالتشريع اللاتيني اللاحق «قانون ٦: ٥» بيد أن غيرهم يقول بأن هذا القانون لا يمكنه أن يلغي عقوبات يفرضها قانون خاص، كالذي نحن بصدده لأن الرسالة البابوية منحصرة في الشرق الآسيوي دون سواه»[٣].

---

(١) الأب بطرس خوري المعلم: رسالة اللاتين في الشرق الأدنى، مجلةالمسرة ــ حريصا السنة ١٩٥٦/٤٢ تموز ص٥٠٤.
(٢) الكاهن جورج ديمون: خواطر مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٥١/٣٧ك٢ ص٦.
(٣) مجلة المسرة السنة الأربعون /١٩٥٤ كانون أول ص٨٦٥.

وأتت رسالة البابا لتقول «إن التنوع في الليترجيات والتهذيبات عند الشرقيين جم الفوائد وعلة مجد وخير للكنيسة بات من الواجب علينا بحكم وظيفتنا أن نسهر بمزيد من الدقة ونمنع وقوع أية جهالة يتأتى عنها ضرر من جانب خدام الإنجيل الغربيين الذين يؤمون الشرق بدافع محبة المسيح».[1]

وأكدت الرسالة أن الكهنة اللاتين لا يرسلون إلى بلاد الشرق العربي من قبل الكرسي الرسولي إلا ليكونوا في خدمة البطاركة والأساقفة ويخففوا من أعبائهم. فالكهنة اللاتين في الشرق ليسوا ما خلا الخدمة الروحية للأجانب اللاتين، سوى أعوان ومساعدين للكنائس الشرقية لكي تتمكن هذه الكنائس من تحقيق رسالتها. وعلى ذلك يتحتم على الكهنة اللاتين أن يحذروا، في استعمال السلطان المخول لهم، أن يمسوا بضر سلطة الرؤساء المكانيين، أو ينقصوا عدد المؤمنين الخاضعين لهم.[2]

وأتت هذه التطمينات على أثر وصول كهنة لاتين إلى هذه المنطقة بتسميات مختلفة لاستقطاب المسيحيين الشرقيين إلى كنيستهم، وبعد أن أبدى رجال الدين الشرقيين الكثير من الامتعاض على ما تسير إليه الأمور من تحول رعاياهم الكاثوليك إلى الكنيسة اللاتينية، لهذا أعادت هذه الرسالة الكثير من الحقوق التي تخص الكنائس الشرقية.

من الكاثوليكية إلى البروتستانتية

في أوائل القرن الخامس عشر ولد مارتن لوثر الكاثوليكي، وما كاد عوده يقوى حتى أصبح إصلاحياً، فقاد المعارضة على أحوال الكنيسة الذي وصلت إليه، حيث أصبح الكتاب المقدس بمرور الزمن، وحدة مترابطة الأجزاء لا يجد الشك إلى شيء منه سبيلاً، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه! ثم كان أن صيرته الكنيسة إبان القرون الوسطى شيئاً ثانوياً، وغلبت عليه خليطاً متنافراً من الأوامر والنواهي الرسمية والأساطير الظنية.

وهنا خرج البروتستانت على الكنيسة نابذين سلطتها المطلقة وحل عهد تمسك القوم فيه بالكتب المقدسة بشدة، كما اصطنعت ببطء أساليب جديدة في دراستها. كما لم يفرّط قادة

(١) مجلة المسرة السنة الأربعون /١٩٥٤ كانون الأول ص٨٦٧ مصدر سابق.
(٢) مجلة المسرة ــ حريصا السنة الأربعون /١٩٥٤ كانون الأول ص٨٦٧ مصدر سابق.

البروتستانتية الإعلام في التمسك بحرفية الإنجيل مطلقاً: فلقد أسقط «لوثر» منه بعض أجزائه مثل كتاب «القديس جيمس» و«كتاب الوحي» و لم ير «كالفن» أية صلة بين «سبت اليهود» و«أحد المسيحيين» كما نادى «الكسندر كمبل» سنة ١٨٢٦ بأن ترجمة الملك جيمس للإنجيل «تشوبها أخطاء عدة».

«وعلى الرغم من ذلك كله، فمن اليسر بالنسبة لجمهرة المسيحيين «ومنهم حل رجال الدين» آنئذ أن يطمئنوا إلى نص ثابت فرد، بدلاً من التوغل في بحوث مُعضِلة لا حصر لها ولا عد. لذا اعتبرت البروتستانتية، طوال ٣٠٠ سنة تقريباً الأناجيل بمجموعها، لا «كتاب الله» فحسب، وإنما (كلماته) نفسها. ومضى قرن كامل آخر، لم يطرأ خلاله أي تغير على «معتقد» المؤمنين، أو المنكرين، هذا ــ وعدّه «العقيدة المسيحية» القائمة طراً»[1]

وإلى هذا وذاك، لم تبق أغلب المدارس الفكرية الرسمية لطائفة البروتستانت أسيرة هذا المنحى المنافي للتفكير السليم، كما انحرف عنه رجال الكثلكة في رومة، بعد أن دأبوا على التمسك به عدة سنين.

وفي القرن التاسع عشر أخذت البروتستانتية تتغلغل إلى لبنان ومن ثم إلى البلدان العربية، حيث نشأت الطائفة البروتستانتية في لبنان بفعل تحول الكثير من أبناء طائفة الروم الأرثوذكس «فارس الخوري مثلاً» إليها بتأثير الإرساليات الأمريكية والبريطانية. أما في سوريا فكان انتشارهم بين أبناء طائفة الروم الأرثوذكس والسريان والأرمن، وندر ما تحول كاثوليكي إلى البروتستانتية، ونلمس تحول السريان إلى البروتستانتية والسريان الكاثوليك في القرى السريانية الممتدة من فيروزة جانب حمص إلى حفر القريبة لدير عطية.

من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية

ندر من تحول من الكنيسة الكاثوليكية إلى الأرثوذكسية إلا في أحوال خاصة، مثل حالات الطلاق، فمن المعروف أن الأرثوذكسية في كافة طوائفها كانت الوعاء للكاثوليكية والبروتستانتية. وإذا ما تقصينا التحول الكبير الذي جرى لأبناء من طائفة الروم الأرثوذكس إلى طائفة الروم الكاثوليك في حلب، نعرف إلى أي مدى لعب الدور الاقتصادي في ذلك. فقد

(١) جورج هدلي في كتاب: آفاق المعرفة ترجمة عبد الهادي المختار دار مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٦٢ ص٣٩١.

أتاح هذا التحول إلى أخذ وكالات أجنبية لهذه المنطقة، أعطت نفوذاً مادياً ومعنوياً لمن اتبع هذه الطائفة أو تلك. ولهذا يمكن الحديث عن التحول الذي حصل بين أبناء الطائفة الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية أو البروتستانتية بكثير من الإسهاب والتفاصيل، يكفي أن نذكر هنا مدينة السلط في الأردن وكيف تحول بعض الأرثوذكسيين بها إلى الطائفة الكاثوليكية.

ففي بدايات القرن العشرين كانت السلط مركز قائمقام تعد نحو ١٤ ألفاً، منهم أربعة آلاف من الأرثوذكس و٧٨٣ من اللاتين ونحو ٢٥٠ بروتستانت، والباقون من المسلمين، فيهم عدد وافر قد نزحوا من نابلس.

ولم تكن طائفة الروم الكاثوليك معروفة إلى أن حل عام ١٩٠٦ حين حصل نفور من حمولة «قبيلة أو أسرة كبيرة» من حمائل السلط ورؤسائهم الروحيين فقدموا مضبطة يطلبون فيها من النائب البطريركي في القدس أن يقبلهم في عداد طائفة الروم الكاثوليك، وبقي فريق منهم هاجر إليها حتى اليوم.

وسنة ١٩٠٧ قام خلاف بينهم على مرشح للكهنوت، يقدمه فريق ويأباه الآخر، فلما رفضته البطريركية في القدس، أخذت جماعته تلح على بطريرك الروم الكاثوليك أن يقبلهم ويرسم لهم مرشحهم. فلما رأى ذلك بعضهم عمدوا إلى حيلة استرجعوا بها المرشح ورسموه في الطائفة الأرثوذكسية، فما كان من أخي المرشح، واسمه سويلم السليمان، أن قام مقام أخيه وأخذ يستعد للكهنوت. وبقي معه جزء من حمولته وانضموا إلى الطائفة الكاثوليكية وهم القوامشة.

على أن رسامة المرشح الأول من الروم قد أثارت بين هؤلاء ثماني حمائل معاكسة لرسامته ــ وهم النشبوات والشعابين وجزء من الدبابنة والورود والنبور والعطافنة والحوامة ــ فنفروا جداً والتأموا وختموا سبع مضابط، وقدمها ثمانية من مشايخهم إلى النائب البطريركي في القدس، طالبين الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية وهذا ما كان لهم[1].

وللوقوف على مدى وتاريخ انتشار طائفة الروم الكاثوليك ــ وكان ذلك على حساب أفراد طائفة الأرثوذكس في الأردن نورد الجدول التالي الذي وضع عام ١٩٣١:

---

(١) تلخيص ما جاء في: بدون توقيع: صفحة أولى من تاريخ أبرشية شرق الأردن مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٤٨/٣٤ ت٢ ص٥٣١.

المكان	تاريخ التأسيس	عدد الأرثوذكس	عدد الكاثوليك	عدد اللاتين
حصن عجلون	١٩٠٤	٢٢٠٠	٣٧٠	٥٠٠
السلط	١٩٠٨	٣٠٠٠	١٣٥٠	٧٠٠
ماعين	١٩١٤	١٣٠	٢٨٥	
شطنا	١٩٢٤	١٠٠	٧٠	
عنبة وخزيرة	١٩٢٤	٥٠	١٦٠	
جريتا وعرجان	١٩٢٤	٧	١٢٥	
الرفيد	١٩٢٥	٦٠	٦٠	
اربد	١٩٢٥	٦٠	٦٠	
صريح وايدون	١٩٢٥	١١٠	١١٠	
غارة ــ كفر ابيل أم رمان ــ عجلون العزبة	من ١٩٢٥ إلى ١٩٢٨	١٥	١٨٣	
مأدبا	١٩٢٧	٥٠	٤٠	٩٠٠
جرش	١٩٢٨	٥٠	٩٤٠	
الكرك	١٩٢٩	١٥٠٠	١٨٥	٤٢٥ مع ضواحيها
أدر	١٩٢٩	٢٠٠	٢٠٠	٤٥
ناعور	١٩٢٩		٨٠	١٠٠
أم القنافذ	١٩٢٩		٣٠	
عمان	١٩٣٠	٥٠٠	١٤٠	٢٠٠
الفحيص	١٩٣١	١٣٠٠	٢١٠	٥٢٥ مع رسيمين
صافوت	١٩٣١	٦٥	٨٥	٥٠
محطة عمان	١٩٣١	٦٠	٣٠	٤٥٠ في باقي القرى
الزرقا	١٩٣١	٦٠	٤٠	
		١١١٦٧	٤٠٣٣	٣٨٩٥[1]

بين مد وجزر وقضم عاشت الطوائف المسيحية في سوريا الطبيعية وفي مصر بعد التحول الكبير الذي حصل بها من المسيحية إلى الإسلام وخاصة السريان الذين قال عنهم المسعودي «تفرّعوا ومنهم تبدّدوا» وبعد الانقسامات التي حصلت بها، وأهمها الكاثوليكية والبروتستانتية، وبعد تعاقب الأحداث في هذه المنطقة على توالي العصور، وهو ما حمل الفرق المسيحية الشرقية على أن تعيش منكمشة على ذاتها قروناً طويلة كأنها جزيرات مقفلة محصنة في حضن الدولة

(١) الأب بولس أشقر: صفحة خامسة من تاريخ أبرشية شرق الأردن مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٤٩/٣٥ نيسان ص٢١٣

المستبدة إلى ما قبل الاستقلال. على أن انكماشها هذا، برغم ما ألحق بها من الخسران والتقهقر، قد ساعدها على حفظ كيانها وحفظ الاسم المسيحي في الشرق.

أخيراً، يلاحظ في هذه الكنائس الشرقية وحدة الأرض القومية، فالسريان محيطهم سوريا الطبيعية والعراق إلى أقاصيهما العليا والأقباط في مصر والروم كانوا محصورين بين وادي العاصي ووادي النيل.

وإذا كنا قد تناولنا المسيحية وانقسام الطوائف فإن الكنائس الشرقية وعلى رأسها الكنيسة السورية ليست كغيرها من الكنائس الأخرى، فشرفها يثبته أعرق وأشهر الآثار القديمة وهو محفوف بالمجد والحرمة العظيمين في العالم المسيحي بأسره. ففي هذه الكنائس انتشر في سرعة عجيبة سر الفداء المقدس، حتى أن أمجاد الرسالة والشهادة والعلم والقداسة قد سطعت فيهن بسنى أشعتها الأولى فجنين بواكير ثمار الخلاص والمسرة. ومنهن فاض وابل هذه الخيرات العظيمة القديرة وهطل على سائر الشعوب منذ أن شخص بطرس، زعيم المصف الرسولي، إلى المدينة الخالدة عاصمة الدنيا، حاملاً بمشيئة الله، مشعل الحقيقة الإلهية وبشرى السلام وحرية المسيح ليبيد وفرة الأضاليل والهرطقات.

لهذا فإن الحديث عن الكنائس الشرقية وعلى رأسها السورية هام جداً لأن قدميتها التي تشرفها فخر عظيم للكنيسة جمعاء، ومصداق لوحدتها الإلهية في الإيمان وشهادة ساطعة بأصلها الرسولي وعلامة نيرة لوثيق اتحادها، بعد أن اندثرت في المغرب منذ القرن الثاني عشر، وفي الجزيرة العربية حيث كان هناك أسقفيات لغاية القرنين التاسع والعاشر.

www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

الطوائف المسيحية والبحث عن الهوية

بعد ألفي عام لا زال المسيحيون السوريون يتساءلون إلى أين وصلوا في المنطقة التي بدأوا بها، وهي منطقة متعددة الدين: وثنية، يهودية، إسلامية، وما لبثت الشيّع والطوائف أن نزلت عليهم، مما جعل كل طائفة تراعي وضعها بإزاء الطوائف الأخرى، وتواجه على الدوام تحدي المشاركة في المصير، وتفتش باستمرار عن صيغة عيش أو تعايش أو حياة تتوافق عليها مع الآخرين.

وإذا كان الجهل والتجهيل تداخل أحياناً في التقليل بما قدمه المسيحيون للحضارة العربية في انبعاثها الأول أيام الخلفاء الأمويين والعباسيين إلى انبعاثها الثاني في القرن التاسع عشر، فإن ضعفت حال المسيحيين، بعد القرن السابع، لأسباب شتى، وأمسوا أقلية، فإنهم لم ينقبلوا، بقلة عددهم، غرباء عن أرضهم وبلادهم، بل ظلوا، على ذلك، قوة كبيرة، لهم رسالتهم التي لا بديل عنها بلدانهم وأوطانهم أياً كان حكامها وأنظمتها. ألم يظلم ابن خلدون العرب حين قال: «العرب أبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لأنها أعرق في العمران الحضري»[1].

إن مثقفي العرب المسيحيين أخذوا يرجعون إلى بطون التاريخ ويسبرون غورها ويتوصلون إلى حقائق راهنة، منها أن الأمة العربية كان لها قبل الإسلام حضارة راقية، وأنهم ساهموا في تلك الحضارة قبل الإسلام وبعد ظهوره. وإن هذه الحضارة لم تكن زمنية صرفة، وأن الأوربيين اقتبسوا الكثير منها، لذلك يتوجب على العرب المسيحيين أن يفتخروا بالتاريخ العربي

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون دار إحياء التراث العربي ــ بيروت الطبعة الثالثة ص٤٠٤.

وبالحضارة العربية مثل المسلمين العرب تماماً، وأنه يجب أن يتآزروا معهم للنهوض بالأمة العربية من كبوتها والعودة بها إلى سابق عزها وغابر مجدها.[1]

لقد ترسخت العزلة المسيحية في هذه المنطقة بفعل سيطرة الدولة الدينية: البيزنطية، الإسلامية، الصليبية، وما شرعته من أنظمة وقوانين «أهل الذمة، نظام الملل...إلخ». فلم تكن شرائع هذه الدول الدينية تنظر إلى المواطن إلا انطلاقاً من طائفته، مما جعل فكرة المواطنية والولاء للوطن غائبة إجمالاً لأن الطائفة كانت هي الوسيط السياسي بين السكان ودولتهم.

كان الدين شعاراً للمسلمين، وكانت حكومة الرسول حكومة دينية تقوم على أساس إحلال الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محل العصبية والشعور القومي، وأصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية ثم بين أفراد الشعب. وابتدأت فتوحاتهم في التوسع وأصبحوا دولة إسلامية مترامية الأطراف تصهر في بوتقتها قوميات الشعوب التي تستولي عليها، ويصبحون جميعهم أمة إسلامية واحدة، إلا من أراد منهم أن يحتفظ بدينه ويبقى على عقيدته ضمن اعتبارات والتزامات معروفة، وكانت قوانين الدولة الإسلامية أحكام شريعتها.

إن ارتباط المسلمين العرب بالدولة العثمانية كان ارتباطاً دينياً باعتبارها دولة الخلافة، ويؤدون للسلطان كل ما يتوجب من تجلة واحترام بصفته خليفة المسلمين ويدعون له بالجوامع خلال صلواتهم واحتفالاتهم، وكانوا جميعهم يقبلون على مدارس السلطان يتعلمون اللغة التركية فيها لكي يملأوا الوظائف في الدولة، وباتوا والحالة هذه مندمجين في الدولة العثمانية اندماجاً كلياً تاماً.

وفي ظل الإمبراطورية العثمانية كانت تقوم جماعات ذات أديان وطوائف دينية مختلفة ومتنابذة، وكانت الدولة لا تعامل جميع هذه الأديان معاملة متساوية، لأن الدولة العثمانية قامت على أساس ديني. وكان الإسلام دين الدولة وسارت هذه على أساس التعصب الديني، إذ ظلت تعتبر المسيحيين أهل ذمة ــ كما كان في الحكم العربي الإسلامي ــ لذلك كان هؤلاء يعتبرون رعايا لا مواطنين، وكانت لهم معاملة متميزة، لا يدعون للخدمة العسكرية ولا يشتركون في حروب الدولة، وتحرم عليهم كثير من وظائفها، وخاصة العليا والرئيسة في مجالي السياسة والإدارة.

لذلك لم يكن المسيحيون يبالون كثيراً بانتصارات الدولة العثمانية أو انكساراتها، وسيان لديهم أربحت الحرب أو خسرتها. فقد كان العرب المسيحيون يتمتعون بتشكيلات وحقوق طائفية خاصة تعترف الدولة لهم بها وتؤيدها. وكانوا أكثر اتصالاً بالدول الغربية لصلة المعتقد

(١) حنا مالك: الدولة والقومية العربية والدين والوحدة مطابع ألف باء ــ دمشق ١٩٨٦ ص٧٢.

الديني من جهة ولعدم مساواتهم بالعرب المسلمين من جهة ثانية. لذلك كانت مواقفهم بالنسبة للدولة تختلف عن موقف المسلمين العرب ويعتبرون الدولة غريبة عنهم ومتسلطة عليهم. وهو ما سمح للدول الأجنبية وخاصة روسيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا وإنكلترا بأن تجد المبررات للتدخل بحجة حماية المسيحيين، فاضطر الباب العالي لأن يعترف بالطوائف المسيحية، وباستقلالها الروحي، وأصبحت تعتبر كل منها «أمة» و«ملة» داخل الدولة العثمانية، أو الأمة العثمانية.

وكان من نتيجة هذا الوضع أن كل طائفة من الأقليات «إضافة للمسيحيين كان هناك النصيريون والموحدون والإسماعيليون» أصبحت تشكل نوعاً من «الأمة» أو «الشعب» له عاداته وتقاليده، وأحياناً، محاكمه الروحية ومدارسه، ومؤسساته الخيرية[1]. وفي هذه الأثناء، لم يبلور الفكر الروماني صورة واضحة للوطن إلا ابتداء من القرن التاسع عشر، حيث راحت لدى الموارنة فكرة القومية المسيحية اللبنانية التي كانت مرتبطة في كثير من ملامحها وتنظيراتها وتحليلاتها بشخصية يوسف كرم «١٨٢٢ــ١٨٨٩» الذي نفاه العثمانيون في سنة ١٨٦٧ إلى أوروبا لمواقفه السياسية المناوئة وعده الموارنة منذ ذلك التاريخ، زعيماً وطنياً لهم. وكان يستحيل على المارونية أن تمتلك في نشأتها وطناً خاصاً بها، فلا حدود جغرافية محددة ومعروفة لها. وكانت السلطة الدينية ــ السياسية التي تدير شؤون الطائفة تخاف من ذوبان الموارنة في وطن ما، وانهيار الطائفة، كما أن الدول على اختلافها والتي عاش في كنفها الموارنة، لم تعمل على إخراج الطوائف من عزلتها.

العروبة أولاً

علينا أن نعترف أن فلسفة العروبة هي صناعة شامية حيث اتجه السوريون دائماً إلى المعيار القومي قبل العامل الديني. فبينما كانت حركة الوطنية السورية ضد الأتراك ــ حيث يدين الطرفان بالإسلام ــ ذات طابع عربي خالص، جاءت الحركة الوطنية المصرية ذات طابع إسلامي حتى تحولت إلى مصرية خالصة مع ثورة الشعب عام ١٩١٩. فالعروبة السياسية طارئة في مصر ووافدة عليها، بينما هي في الشام قوية الجذور راسخة العماد.

إن عوامل كثيرة مرت على لبنان، خاصة في بداية عصر النهضة العربية، جعلت من المفكرين يبدون تحفظهم تجاه الغرب، ونعني بهؤلاء من انتمى إلى الطائفة المسيحية، كون وحدة

(١) منير موسى : الفكر العربي في العصر الحديث، دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧٣ ص٧٣.

الدين تجمع بينهما، وما لذلك من أهمية كبرى، كما كان المسيحيون في لبنان يعتبرون الغرب حامياً لهم وسنداً لقضيتهم. وكانوا يرون في امتداد النفوذ الغربي في السلطنة العثمانية مدعاة للاطمئنان، لا تحدياً. لذلك كانت الحركة الفكرية في لبنان، في القرن التاسع عشر، من زعامتها المسيحية، طرف نقيض للتطورات المعاصرة في تركيا ومصر والبلدان الإسلامية الأخرى. فلم يشعر المسيحيون اللبنانيون، كما شعر المسلمون العثمانيون، بمسؤولية الحفاظ على دولة في طريق الانهيار، أو على دين مهدد بالخطر. وهم أيضاً لم يأنفوا من الأخذ عن الغرب المسيحي أو اعتماد طرقه.

إن وحدة الأرض والعقيدة تغلبت على الانعزالية وحدد بعثها في ظل الاستعمار العثماني، حيث كانت في لبنان في عهد المتصرفية، فئات مسيحية من غير الموارنة لم تحصر همها في توسيع لبنان وضمان كيانه، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، فشمل ولاؤها الوطني سوريا كلها. ذلك أن الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك من اللبنانيين «كان عدد السريان ضئيل جداً آنذاك» كان لهم الكثير من الأخوان في مختلف المناطق السورية، كما كان للموارنة أخوان في حلب وغيرها من المدن السورية الكبرى. وكان لكل من هذه الطوائف الثلاث نظام كنسي يرتكز على الكرسي الأنطاكي المشتمل على جميع الأنحاء السورية ما عدا فلسطين، التابعة لكرسي القدس. وكان هذا وحده كافياً لتوحيد قضية المسيحيين في الولايات السورية جميعاً. لذلك، ففيما واصل الموارنة عموماً تكريس جهودهم للبنان، انضم بعض النافذين منهم إلى الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك في اعتبار سوريا كلها وطناً لهم. ومع مرور الأيام، نمت عند هذه الفئة من الوطنيين المسيحيين فكرة القومية السورية التي تخطت الاعتبارات الدينية والطائفية لتحتضن المسلمين والمسيحيين السوريين على السواء. وكان من مقاصد هذه القومية العلمانية، القائمة على اللغة العربية والتراث الثقافي المشترك بين السوريين جميعاً، أن تضع تلك الصيغة المتوخاة للتعاون المسيحي ــ الإسلامي الذي رأى فيه الكثيرون الضمان الأكبر للمسيحيين في سوريا. وكانت مدارس المسيحيين وحدها وأديرتهم وحدها، هي التي جمعت اللغة العربية، وهي التي صانت التراث العربي، وهي التي نفخت الروح القومية في الشعب. من على مقاعد هذه المدارس انطلق إبراهيم اليازجي وبطرس البستاني ومؤسسو الجمعية العلمية السورية والجمعية السورية في بيروت وسائر الأحزاب السياسية التي أطاحت بالاستعمار العثماني. على مقاعد هذه المدارس تآخى المسلم والمسيحي ودرسوا معاً فكرة الوطنية.

العلم لبناء الوطن

كان التعليم في سوريا قبل الفتح في القدس وقيصرية وإنطاكية وحران والرها ونصيبين ورأس العين...إلخ. مبرزاً في كل فروع الرياضيات والفلسفة والطب والحقوق، وكانت المدارس الخاصة في تلك المدن تعلم اللغة اليونانية ــ لغة الثقافة والعلم إذ ذاك ــ واللغة اللاتينية ــ لغة التشريع والحقوق، إلى جانب اللغة السريانية لغة سوريا في ذلك الوقت، وهذا الإتقان للغتين غير لغة البلاد، فتح للسوريين آفاقاً واسعة تعرفوا بها بأرسطو وأفلاطون وأبقراط وإقليدس وبطليموس، ولما فتحت هذه البلاد لم يجفل أحدادنا الذين لم يتعودوا الانكماش على النفس، بل أحبوا اللغة العربية فدرسوها وأتقنوها واصطفوها لأولادهم، ثم هبطوا بمعارفهم إلى بغداد حيث عربوا عصارة ثقافة الأجيال، والمسعودي وابن أصيبعة يحفظان لنا أسماء مواطنينا الأقيال أمثال يحيى بن عدي وقسطا بن لوقا، وتلك الأسر التي كان يتوارث فيها الابن العلم والترجمة عن أبيه أمثال آل بختيشوع وآل حنين.

ويمكن لنا القول إن الترجمة كان يتداولها أبناء الطوائف المسيحية منذ ذلك الوقت، وبفضل الجامعات الأولى في سوريا «الرها ونصيبين» والمدارس الوطنية السورية لاحقاً، استطاع السوريون أن يحافظوا على قبس الحضارة الذي كان خافتاً في تلك الأيام وأن يلقحوا اللغة العربية ويهيئوا لها أن تلعب ذلك الدور الذي لعبته في عصر المأمون وأن تعبد الطريق لأمثال الكندي والفارابي وابن سينا... إلخ.

والحقيقة التي تؤيدها الحوادث التاريخية تضع سوريا قبل أي بلد مشرقي مهداً لتلك النهضة المباركة التي لا زلنا إلى اليوم نستظل بفيئها. فقد حمل المسيحيون قبل الآخرين لواء العروبة، وهم من نشروا نهضة اللغة العربية، ولا سيما عبر وضع أول كتاب قواعد على يد جبرائيل فرحات عندما كانت دول المنطقة تتكلم اللغة التركية. ولأن كان بونابرت قد أتى من فرنسا بأول مطبعة عربية شهدها وادي النيل في أواخر القرن الثامن عشر، فعبد الله الزاخم السوري، أنشأ، ثمانين سنة قبله، أول مطبعة وطنية في الشرق، وسوف يعود الشرف الأمثل لرزق الله حسون، السوري أيضاً، أن يؤسس أول جريدة عربية وطنية في الشرق، وتاريخ الأدب العربي حافل بالكتبة والشعراء السوريين وخريجي المدارس الخاصة الذين حملوا إلى بقية أقطار الشرق العربي تلك البذرة التي سوف تصبح بعد قرن شجرة وارفة الأغصان.

وعلى ما يذكر، لم يكن في سنة ١٨٦٣ في القطر المصري من مدارس سوى مدرسة ابتدائية ومدرسة تجهيزية ومدرسة الطب والصيدلة والولادة والمدرسة الحربية، وكانت جميعاً في حالة سيئة من حيث كيانها ونظامها والتعليم والتربية فيها. وبالإيجاز لم يكن في الفترة ما بين سنة ١٨٤٨ و١٨٦٣ كثير من المصريين ذوي الكفاءة للقيام بأعباء التعليم.[١]

لقد كانت المدارس المنبثة في لبنان خاصة، تستضيء بنور الغرب في علومه وأدبه مستفيدة من حريته السياسية التي أكره الأتراك على إنالته إياها، وقد خرجت شباباً ترجموا لكبار عباقرة الغرب ونشروا ما ترجموه للناس، وشعروا بوطأة الحكومة العثمانية السياسي، فهاجر قسم منهم إلى أمريكا وأسس جرائد عربية ونوادي وجمعيات جعلتهم موضع احترام أهل البلاد، وانتقل القسم الآخر إلى مصر فبعث فيها نهضة علمية وأدبية ممتازة، وليست هذه النهضة الأخيرة إلا أثراً من آثارها.

أما في سوريا والعراق فقد جاء فيهما صدى الغرب متأخراً، لما كانتا تكابدانه من وطأة الحكم التركي، وبذلك سبق لبنان البلاد العربية قاطبة إلى النهضة العلمية والأدبية، فكان منه أساتذة للعالم العربي لم تنكر أياديهم[٢].

لقد كان لظهور الفكرة القومية هذه صلة وثيقة باليقظة الأدبية العربية التي قامت في لبنان في عهد المتصرفية. ولعل أول من نادى بها المفكر البحاثة بطرس البستاني، ففي الصحيفة الأسبوعية «نفير سوريا» التي صدر العدد الأول منها في عام ١٨٦٠، دعا بطرس البستاني إلى التآخي بين مسيحيي سوريا ومسلميها. وفي عام ١٨٧٠، أصدر البستاني مجلة «الجنان» وجعل شعارها «حب الوطن من الإيمان». وكانت عبارة «الوطن» عند البستاني ورفاقه، تعني سوريا. لكنها كانت «سوريا» غير منفصلة عن التراث الثقافي العربي. وهكذا التقت فكرة القومية السورية، منذ أول ظهورها، بفكرة العروبة. وفي القسم الأخير من القرن التاسع عشر، شددت الأوساط الأدبية والعملية التي نشأت حول الكلية السورية الإنجيلية في بيروت، والتي سيطر عليها فكرياً المرسل والبحاثة الأمريكي فان ديك على عروبة سوريا. وربما كان بتأثير فانديك، لعنايته العميقة بالتراث العربي، إن تطورت «سورية» البستاني، شيئاً فشيئاً، إلى «عروبة» المفكرين اللاحقين به من المسيحيين اللبنانيين، أمثال يعقوب صروف وفارس نمر.

لقد كان للمسيحيين السوريين دور قيادي بارز في النزعة الاستقلالية العربية وتأسيس الوعي القومي، لا سيما مع بداية القرن العشرين عندما تعمق مطلب «الحركة العربية» في

(١) جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر دار المعارف بمصر ص٨١.

(٢) إبراهيم الكيلاني، جميل سلطان، حنا نمر، ممدوح حقي: الوجيز في الأدب العربي ـــ دمشق ١٩٤٢ ص١٤٢.

الاستقلال عن الدولة العثمانية وبتأثير من حركة «تركيا الفتاة» المطالبة بدورها بتتريك تركيا بعد الانقلاب على الإمبراطورية العثمانية المريضة وإبطال نظام الخلافة، وبالتالي الخروج من تركة التخلف العربي الإسلامي الذي أخر تحديث تركيا ــ حسب تصور ــ أتاتورك ــ وإليه انتشرت في البلاد العربية «مصر وسورية ولبنان تحديداً» الجمعيات العروبية وتشكلت خلايا قومية ثورية حاكت وقادت أساليب جمعية «الاتحاد والترقي» والتقت تيارات الإصلاح الإسلامي المستنير وحركة التنوير الليبرالي على الامتاح من قيم الثورة الفرنسية ومفاهيمها في الحرية والمساواة والإخاء، حتى أن رفاعة الطهطاوي الذي بعث إلى فرنسا شيخاً وإماماً لطلاب بعثة محمد علي عاد تنويرياً عقلانياً منادياً بالمواخاة بين قيم الثورة الفرنسية وقوانينها الوضعية ومبادئ الإسلام الأصيل، وهو بذلك ظهر، كما نجده في آثاره الفكرية، شيخاً منوراً، اشتغل بـ «حماس» على مقاربة الأفكار الغربية العقلانية الحديثة إلى الذهنية العربية الإسلامية التقليدية الغارقة في ظلامية فروع إقطاع خرافي ووعي خرافي. وفي الجانب الآخر كان ليبراليو النهضة، وهم، في العمق، محرك حداثتها، أصحاب مشروع نهضة شاملة انطلقوا في تأسيسها من الصفر.

واعتبروا التراث العربي الإسلامي ــ المسيحي تراثاً واحداً للأمة، وسياسياً، ابتكروا مفهوم القومية العربية العلمانية لأنها تستوعب المسلمين والمسيحيين العرب على قدم وساق المساواة في المواطنة، فتقلد الآباء المؤسسون، مهمات متعددة في صورة مثقف واحد. بدوا كمعلمين لألف باء الحداثة، يبتكرون مصطلحاتها في لسان عربي مخروس لقرون. ها هو أحمد يوسف الشدياق ينحت مفردات عربية عصرية! الجريدة، مجلس النواب، مجلس الشورى، الجامعة، المستشفى، المعرض، الاشتراكية، الباخرة، الصيدلي..إلخ.

ومن حقل اللغة إلى حقل المجتمع وشرط نهضته الشارط والمشروط بحرية المرأة و«العلم والتعليم هما نور العقل وهما في منزلة المصباح الذي يحمله الساري ليهتدي به، فإذا لم تأتمن المرأة على حمل النور لم يكن تأتمنها على حمل أي نور كان مخافة أن تحرق البيت». وكان بطرس البستاني الملقب بـ «المعلم» الأكبر لعصر النهضة العربية هو أول من أسس مدرسة علمية وطنية، أي مفصولة عن مدارس الإرساليات ومناهج الكتاتيب الدينية. وهو أول من ألف قاموساً عربياً عصرياً، وأول من وضع موسوعة «انسكلوبيديا» باللغة العربية، وأول من طالب بحق المرأة في التعليم، وأول من أصدر صحيفة تنويرية وأول من صاغ مبادئ النهضة في دستور لدولة عربية حديثة.

ودائماً، هي المرأة، معيار كل إصلاح أو ثورة اجتماعية نهضوية، لأنه «إذا عم النساء الجهل في مكان أو زمان نراه انتشر واستولى بملء قوته على جميع أهله ما يجعل الناس برابرة أو متمدنين إنما هو المرأة»، هكذا كان رأي بطرس البستاني[1].

إن العينات من هذا القبيل كثيرة وعديدة تجمع كلها على مساهمة المسيحيين الكبيرة في كل نهضات العرب العلمية والفكرية والقومية.

الوصول إلى الحقيقة

ذلكم بعض ما مر على المسيحيين السوريين من خلال وجودهم في هذه المنطقة، شعب كادت تقتلع جذوره وتمحى هويته، استطاع البقاء في ظل سيطرة مجتمع آخر على مدى ألف وأربع مائة عام بفضل رواسب حضارات ماضية ودعائم قوى روحية جعلته يفرض نفسه ويؤثر في بيئته، برغم أقليته «ولعل سوريا أفضل مثال للبيئة التي تصهر الجماعات المختلفة النازلة بها وتحولها إلى مزاج واحد وشخصية واحدة»[2].

إن الدين بنفسه لا يصنع الحروب، لكن الذي يصنعها هم المتعصبون له، إننا ننحاز للدين كمصدر للسلام وننبذ وجهه الآخر، وجه التعصب والكراهية[3].

والمسيحية الحقيقية لا تقوم على العنف ولا على الاضطهاد، وهي تفرق بين ما هو لله وبين ما هو للدولة وبين ما هو للناس. وشر الشعوب شعب لا يعرف ماضيه، وشر الأمم أمة تجهل رسالتها.

والجهل هو غياب الوعي الموضوعي والثقافي عن الحقائق العلمية والتاريخية واستبدالها بالأساطير والأوهام. وكثيراً ما نرى أن المعلومات المؤكدة غير متوافرة عن تاريخ هذه الطائفة أو تلك ولا عن معتقدها وخصوصاً في مراحل نشأتها. وهذا ما سعينا إليه جاهدين في كتابنا السابق «المسيحيون السوريون خلال ألفي عام».

وفي الصفحات التالية سنعرض لأوضاع أربع طوائف تشكل الثقل المسيحي في سوريا الطبيعية كمثال لما نبغيه في البحث عن الهوية المسيحية حيث ثمة في ذاكرة أبناء بعض الطوائف

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط ــ لندن ١٩٩٩/١٢/٢٤ ص١٠ فرج بو العشة.

(٢) انطون سعادة: نشوء الأمم بدون ذكر اسم ومكان الناشر وسنة الطبع الآثار الكاملة ٥ ص١٥٤.

(٣) مجلة النشرة ــ عمان العدد ١٢ خريف ١٩٩٩ ص٧ جلالة الملك عبد الله الثاني.

معطيات كثيرة مبلبلة ومشوشة وأخبار متنافرة، وسير متناقضة، وتواريخ متباينة وغموض وإبهام وتأويل وتفخيم عما نعرض له، نتيجة لتغلب العادات والتقاليد والأعراف على الحقائق التاريخية والموضوعية في ما ندر.

إن إبراز تأثير العوامل الاجتماعية في التصرفات البشرية يمثل تقدماً للمعرفة في علم الاجتماع. فكلما ازدادت هذه الضغوط (استبطاناً) وغدت لهذا السبب غير مدركة، ازدادت أهمية الكشف عنها. ولكن تقدماً أكثر أهمية أيضاً يقوم على اكتشاف الجزء المتعلق بمقاومة هذه الضغوط التي تغطي النتيجة الإجمالية وأسباب هذه التصرفات.

وملاحظة الوقائع هي القاعدة الصلبة الوحيدة للمعارف الإنسانية. والشيء ذو القيمة الفائقة الذي يقدمه علم النفس الاجتماعي للمؤرخ في حالة الوثائق كما في حالة الاتجاهات، هو بخاصة مفاهيم وأنماط من الأصناف والمشكلات لم يألفها المؤرخ، على الرغم من أنه يتصدى لها بصفتها واقعاً اجتماعياً وبشرياً، سواء أكان المقصود مواقف سياسية أو ردود أفعال اجتماعية ومجموعات أم شخصيات تاريخية. لقد أثار هذا الغنى وهذه التطورات الجديدة الانطباع بوجود «أزمة» في التاريخ، وقد توافقت هذه الأزمة كما في العلوم الاجتماعية الأخرى، دفعة واحدة، ببحث عن الهوية، وفي الوقت نفسه لكي يحمي نفسه من نزوع الهيمنة.

كنيسة
السريان الأرثوذكس

الكنيسة السريانية من أقدم كنائس المسيحية، المسيح تكلم بلغتها، وبها أبحاد مسيحية كبيرة، خاصة بثقافتها ولغتها إلى أن ضعفت بضعف الوسط الذي نشأت به، وهو الوسط العربي. وكانت في كافة مراحل التاريخ الكنيسة «السورية» بحق وحقيقة. وشكل أفرادها الذين انضموا إلى الإسلام في مراحل مختلفة، وخاصة بين القرنين السابع والتاسع وعاء كبيراً في هذه المنطقة: مزج في الدم ومزج في النظم الاجتماعية، ومزج الآراء العقلية ومزج في العقائد الدينية، حتى أنه لا زال يوجد سريان مسلمون يعيشون في ثلاث قرى سورية، مما يجعلنا نقول إن البيئة الإسلامية العربية في سوريا الطبيعية مختلفة عن غيرها في سائر البلدان الإسلامية، وأنها أقرب إلى التفاهم مع المسيحيين من غيرها.

وأصبح اسم السريان علماً خاصاً بملة من أصل عدة ملل مسيحية، وبهذه التسمية عرفتها السلطتان السريانية الأرثوذكسية، والثانية السريانية الكاثوليكية التي انفصلت عنها في القرن السابع عشر.[1] وبعد القرن السابع عشر أضيف إلى السريان في تركيا لفظة القديم أو القدماء، فيقال سريان قديم للسريان الأرثوذكس الذين هم الأصل تمييزاً عن السريان المتليتنين. وإذا قيل سريان فالمقصود بهم السريان الأرثوذكس[*] لا غير[2] كقول يوسف داود «اليعاقبة الذين يقال لهم السريان على سبيل الغلبة والنساطرة المعروفين بالكلدان، والموارنة المنتسبين إلى دير مار مارون» وكثيراً ما يستفيض يوسف داود عن كلمة يعاقبة بلفظة سريان كقوله «فاللغة السريانية هي لغة ثلاثة طقوس شرقية، أي طقس الكلدان وطقس السريان وطقس الموارنة»[3]

إننا نعرف على الأقل أن مار أغناطيوس ثاوفوروس النوراني هو أحد الآباء الرسوليين، وثالث بطاركة إنطاكية، سرياني المحتد. اعتنق الدين المسيحي المبين، وتتلمذ لمار بطرس أولاً ثم لمار يوحنا الإنجيلي. وقد أيد أكثر المؤرخين بأن بطرس الرسول رسمه اسقفاً لرعاية المؤمنين من أهل الختان في إنطاكية، كما رسم بمساعدة بولس أفوديوس لرعاية المؤمنين من الأمم فيها. ولما استشهد بطرس سنة ٦٧ خلفه أولاً في كرسي إنطاكية القديس أفوديوس واستشهد سنة ١٩٦٨ بأمر نيرون، ثم خلفه القديس أغناطيوس النوراني فأصبح ثالث بطاركة إنطاكية.[4]

يفخر السريان بمساهمتهم في بعث اليقظة العربية عند الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والعراق، وقد كان لهذه المساهمات الأثر البين في إيجاد تفكير فلسفي وعلمي في وسط كان يغلب عليه البداوة وروح الصحراء. فقد كان لتفوق الكنيسة السورية على الكنائس الأخرى مأثرة بارزة من مآثر المجتمع والفكر السوري. ومع ما كان للكنيسة السريانية من رغبة في علوم اليونان، إنما نشأت وتوسعت بعامل الردة التي أثارت المجتمع السوري ضد المحاولات التي قامت بها بيزنطة وروما لصبغها بالصبغة اليونانية. وفي الوقت الذي كانت به رومة والقسطنطينية قد عمدتا إلى اعتبار التعليم السرياني ضرباً من الهرطقة، فقد كان قيامهما في الأصل احتجاجاً على

---

(١) سمير عبده: المسيحيون السوريون خلال ألفي عام دار علاء الدين ــ دمشق ٢٠٠٠ ص٧٠.

(*) الأرثوذكسية كلمة يونانية تعني مستقيم العقيدة أو تقويم الإيمان.

(٢) المطران اسحق ساكا: كنيستي السريانية مطابع ألف باء ــ دمشق ١٩٨٥ ص٢٦.

(٣) المطران يوسف داود: كتاب القصارى المطبعة الأدبية ــ بيروت ١٨٨٧ ص٣٧.

(٤) البطريرك مار أغناطيوس يعقوب الثالث: تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية الجزء الأول بيروت ١٩٥٣ ص١٠٢ مرجع سابق.

التدخل الخارجي في شؤونهما الأهلية، وتنكراً لعملية التوفيق التي استهدفت تحويل المسيحية، وهي دين سوري، إلى منظمة يونانية رومانية. ومع حلول الإسلام لم يبق من السريان إلا كنيستهم وضعفهم تجاه العاديات التي وقفوا لوحدهم يجابهونها دون أي عون خارجي، سوى بعض التسامح الذي فطن إليه قلة من الحكام على مدى القرون الماضية، وهكذا بقوا في الذاكرة والمدونات أكثر مما بقي عددهم أو حركتهم لها دورها في الأحداث التي مرت على المنطقة في سنوات النهضة العربية منذ القرن التاسع عشر. فقد بُطش من بطش بهم وحولهم عن مذهبهم من استقوى عليهم بحيث اندثر وجودهم في كثير من المناطق السورية بحكم الترغيب والترهيب، فقبعوا في الجبال القصية من شمال شرق سوريا إلى أن حدثت مذابح الحرب العالمية الأولى فقتل منهم مائة ألف وتشرد الآخرون وعادوا إلى أرض سورية الواسعة وعمروا من جديد هذه المناطق فغدا حضورهم وتواجدهم.

وما من سوري أصلي إلا وأصله سرياني، سواء كان مسيحياً أو مسلماً[1] فالسريانية هي قومية سوريا قبل القومية العربية الحالية، وهما شقيقتان منذ أمد بعيد، أعطت كل واحدة منهما للأخرى ما لم تعط الشقيقات لبعضهن في الواقع. وهكذا نرى عرى النسيج الحيوي في مطابقة الحضارتين لبعضهما البعض، فالسريان رُفعوا وارتفعوا مع نهوض الحضارة العربية وانتكسوا وضعفوا حينما انهزم العرب، فالمصير كان دائماً وأبداً ملازماً للاثنين. ألم يقل مطران السريان عام ١٩١٩ «البطريرك فيما بعد أفرام برصوم» للجنرال اللنبي عندما زار دمشق في شباط من ذاك العام «لا تحول مسيحيي دون اعتناق مذهب الوحدة العربية الذي يجمع أبناء البلاد على صعيد واحد في الإخاء والمساواة»[2].

ويعتبر البطريرك أفرام برصوم باعث النهضة في الكنيسة السريانية خلال القرن العشرين، فقد كان رجل دين وعلم وفكر وسياسة ووطنية جعل الكل يحترمونه ويقدرون موقعه على رأس الطائفة السريانية مما أعاد إليها بعض الاعتبار الذي نسي بفعل التراجع والفقر والضياع.[3]

لقد كانت الكنيسة السريانية منتشرة، إنما بعدد أكبر بكثير مما هي عليه اليوم، في سوريا وفلسطين وما بين النهرين وتركيا وبلاد فارس ومصر. وكان يدير شؤونها بطريرك ومفريان وعدد كبير من رؤساء أساقفة وأساقفة. أما الكرسي البطريركي فكان غير ثابت ثم اتخذت آمد

(١) سمير عبده: السوريون والحضارة السريانية، دار الحصاد، دمشق ١٩٩٨ ص٦.

(٢) يوسف الحكيم: سورية والعهد الفيصلي المطبعة الكاثوليكية ــ بيروت ١٩٦٦ ص٥٩.

(٣) سمير عبده: السريان قديماً وحديثاً المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان ١٩٩٧ ص١٠٤ مرجع سابق.

«ديار بكر» مقراً له ومنها نقله إلى ماردين البطريرك ميخائيل الكبير وذلك في النصف الثاني من القرن الثاني عشر[1] ومن ثم إلى حمص فدمشق أخيراً.

ورغم عراقة الكنيسة السريانية فإن تراثها الأدبي والفكري لا زال بعيداً عنها في متاحف وكنائس أخرى، ولا شك أن الموارنة والسريان الكاثوليك والكلدان حافظوا على التراث السرياني، لأن لغتهم الطقسية هي السريانية، يكفي هنا أن نشير إلى ثلاثة كتب قرأنا في مجلة عن صدورها ولعل غيرها صدر بالتأكيد دون التنويه له في هذا المرجع، والكتب صدرت لكتاب غير سريان أرثوذكس عام ١٩٤٩ وهي «تعريف الأفعال السريانية» تأليف الأب البندكتي أسطفان رحال[2] وكتاب «مرشد الطلبة السريانيين إلى كلتا لهجتي الغربيين والشرقيين» تأليف القس بطرس سابا[3] وكتاب «قدمية الموارنة السريان في جبل لبنان» للأب يوسف حبيقة وهو مطبوع عام ١٩٣١[4].

هذا النقص المعرفي عن السريان ومآثرهم جعل الكثيرين من أبناء هذه الطائفة تواقين إلى التعمق في دراسة اللغة السريانية وآدابها للاستزادة في الإطلاع على أقدم لغة لا زالت مستعملة إلى الآن. ولكن وسيلة ومكان التعلم لا زال بطيئاً ومحظوراً أحياناً ومجهضاً، مما يضع هذه اللغة على طريق الانقراض خلال العقود القليلة القادمة، على الأقل عند أقلية الشعب الذي لازال يتكلم بها.

ويبقى إنشاء «معهد الدراسات السريانية» حلماً طالما نادى به مثقفو الطائفة دون الالتفات له من قبل المعنيين.

كما أن ابتعاد مثقفي الطائفة عن أنشطتها أضعف من إبراز صورتها الناصعة لتاريخها المجيد.

الكنيسة المارونية

الطائفة المارونية هي من الطوائف المسيحية الأول وفرع آخر من فروع الكنيسة السورية القديمة، الذي يعود أصله إلى عميده القديس مارون، وكان هذا الناسك راهب متعبد متقشف لا يعرف عن حياته شيء كثير، عاش في إنطاكية وقورس «قورش» وفيها توفي سنة ٤١٠، وهو في ما يظن «مارون الكاهن الناسك» الذي وجه إليه يوحنا كريستم وهو في طريقه إلى منفاه، رسالة يرجوه فيها أن يصلي من أجله ويواصله بأخباره.

---

(١) البطريرك أغناطيوس أنطون الثاني حايك: علاقات كنيسة السريان اليعاقبة مع الكرسي الرسولي من ١١٤٣ــ١٦٥٦، مطابع حبيب اخوان ١٩٨٥ ــ بيروت ص١٧.

(٢) المسرة ــ حريصا سنة ١٩٤٩/٣٥ ت١ ص٥٦٧.

(٣) المسرة ــ حريصا السنة ٣٥ /١٩٤٩ ت١ ص٥٦٥.

(٤) المسرة ــ حريصا السنة ١٩٤٩/٣٥ حزيران ص٣٧٢.

وبدعة الموارنة كانت المشيئة الواحدة «المونوتيلية»، فبعد أن انتشرت في البطريركية الإنطاكية، حتى غدت عقيدة سلطاتها العليا تلقت ضربة حاسمة بحكم المجمع القسطنطيني عليها، سنة ٦٨١. ومع ذلك استعادت بعض الحظوة في عهد الملك فيليبكوس «٧١١ــ٧١٣»، وبعد سقوط هذا الإمبراطور أعاد أنستاسيوس الثاني «٧١٣ــ٧١٩» إلى الرأي المستقيم مكانته.

ولما شعر مشايعو بدعة المشيئة الواحدة في المسيح أنهم مضطهدون من الملكيين والسريان، هاجروا إلى لبنان. وفي حقبة مجهولة تاريخياً أقاموا عليهم بطريركاً خاصاً يحمل اسم إنطاكية.[1]

ويغلب الظن أن يوحنا مارون هو الذي أعطى هذه الطائفة اسمها واعتبر بطل الأمة الجديدة التي نشأت وترعرعت على ضفاف قاديشا ومؤسس كيانها القومي، ولد في القرن السادس في سروم قرب إنطاكية، ودرس السريانية واليونانية في مدينة إنطاكية ومن ثم في القسطنطينية ورسم أسقفاً على البترون. وفي عهدته نمت الطائفة المارونية إلى أن غدت أمة مستقلة.

إن نشأة المارونية كان ضمن ظروف موضوعية وذاتية. فهي ولدت من رحم التيار الاستقلالي الوطني الذي نما شمال سوريا لمقاومة الاستعمار الغربي المتمثل يومها بالإمبراطورية البيزنطية، غير أن هذا التيار الاستقلالي واجه ظروفاً موضوعية طرأت حين قيام الدولة الدينية الإسلامية وتشريعاتها. وقد حاول يستنيانوس الثاني إمبراطور البيزنطيين سنة ٦٩٤ أن يخضع الموارنة فأرسل إليهم جيشاً هدم ديرهم القائم على العاصي، لكن يوحنا مارون تمكن من القضاء عليه في أميون «ومنذ ذلك الوقت تشبث الموارنة بالعزلة وأنشؤوا ضرباً من الفردية التي طالما تميز بها أبناء الجبال».

ويمكن اعتبار الكنيسة المارونية كنيسة لبنان القومية وهي التي حافظت إلى اليوم على بعض مظهرها السرياني ضمن التالي كما يذكر أحد المصادر[2].

١- لغة الصلاة مزيج من السريانية والعربية، وكثيراً ما نجد اللسان العربي في الكتب الكنسية مكتوباً بحروف سريانية. ٢- طقس الصلاة ينتمي إلى السرياني وهو طقس إنطاكية. ٣- البطريرك الماروني يحمل لقب إنطاكية وهو لقب البطاركة الأربعة الآخرين: السرياني والروم الأرثوذكس والسرياني والروم الكاثوليك. ٤- الكنائس المارونية ليس لها نمط خاص في البناء.

---

(١) الأكسرخوس جوزف نصر الله: منصور بن سرجون منشورات المكتبة البولسية ــ بيروت ١٩٩١ ص٧٢.

(٢) سليم سركيس: لبنان فلسطين والمسيحية، توزيع مكتبة السائح ــ طرابلس ١٩٨٢ ص١٨ مرجع سابق.

٥- اللباس الطقسي لاتيني، ومنهم من يقول ان انشقاق الكنيسة الشرقية لم يؤثر على الكنيسة المارونية فلم تنقطع صلتها بروما.

ومع أن الموارنة ظلوا إلى عام ١١٨٠ يتبنون الرأي في المشيئة الواحدة والطبيعة الواحدة للمسيح وكان عددهم آنذاك أربعين ألفاً فقد عادوا إلى حظيرة الكثلكة، وعجزوا ذاتياً عن فرض معتقدهم اللاهوتي التوفيقي بهدف توحيد مختلف الطوائف المسيحية الشرقية وبناء قوة محلية قادرة على القيام بدور فاعل ومستقل عن الإمبراطورية البيزنطية وعن الدولة الإسلامية في الوقت نفسه. حتى أن الموارنة في العصر الصليبي كانوا موضع اهتمام روما.

وقد عجزت الطائفة المارونية عن تحقيق هدفها في توحيد المسيحيين في المشرق من خلال طرحها اللاهوتي التوفيقي بين مختلف الاتجاهات المسيحية المتصارعة آنذاك.

وكان المسيحيون قد انقسموا بين قائل بالطبيعة الواحدة والمشيئة، أما الموارنة فاختاروا الحل الوسط، آملين توحيد المسيحيين المشرقيين في اتجاه واحد، فبشروا بالطبيعتين وبالمشيئة الواحدة، لكن ما من أحد وافقهم، فتحولوا إلى فريق ثالث يخوض الحوارات اللاهوتية أحياناً ويصارع الصراعات العنيفة مع مختلف الفرق المسيحية أحياناً أخرى. وهكذا أصبحوا طرفاً معادياً للجميع.

وأصبح الموارنة أسيري مخططي الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية فضاعوا وتلهوا بين طموحاتهم الاستقلالية وتجاذب الصراعات، مما أدى إلى تباين تحالفاتهم وتأرجحها الدائم. وبالفعل فإن قسماً من الموارنة تحالف مع بيزنطية ثم مع الصليبيين ولاحقاً مع الدول الأوروبية والولايات المتحدة، بينما تحالف القسم الآخر مع الدولة الإسلامية بداية ثم مع الدول العربية على اختلافها. ونتيجة لهذه التحالفات انقسم الموارنة على أنفسهم وتناحروا وتصارعوا لكنهم سرعان ما كانوا يتراجعون عن تحالفاتهم، وهي تحالفات لم يكن لها أن تستمر ولا أن تستقر، لأنهم أرادوا دائماً أن يتشبثوا باستقلاليتهم وأن يحافظوا على ذاتية أو خصوصية وصلت إلى حد المغالاة، حتى أن البعض أعطى «الشخصية المارونية» بعداً خاصاً بها، ملازماً لطبيعتها.

إن الانتقال التاريخي للجماعات الأول من الموارنة من السهول إلى سكنى الجبال أدى بهم إلى هاجس التمسك بذاتيتهم حتى لا يضطروا إلى هجر أرضهم والضياع في الغرب، ولا إلى هجر معتقدهم والذوبان في محيط غير ملتهم، حتى أنهم في عقيدتهم الدينية حاولوا أن يجدوا لها كياناً خاصاً بها.

وفي دراسة معمقة يحلل أحد الدارسين هذه الوضعية التي وصل إليها الموارنة في القول إن «الاستقلال» لديهم قد تداخل في ذاكرتهم بالنزعة إلى التحالف مع الآخرين، حيث نظرة الموارنة سواء إلى العالم الغربي أو إلى المحيط الإسلامي كانت مختلطة ومشوشة من حيث إن الغرب مناقض لهم وطنياً والمحيط الإسلامي على خلاف ديني معهم. وهكذا فإن الموارنة رفضوا «الغرب» و«التأسلم» على السواء مع أنهم «تغربوا» أحياناً مثلما «تقربوا» من خلال تحالفاتهم أو تنازلاتهم.

ولكن هذا التشوش في التوجهات أدى إلى حالات من البلبلة وعدم الاستقرار، جعلهم يخوضون صراعات مستمرة على جهات عدة:

١- ضد الغرب الذي يريد استغلال الموارنة لتحقيق مشاريعه «الرومنة، الليتنة، البزنطة، الأمركة، التغريب، الصهينة».

٢- ضد الشرق الإسلامي أو العربي الذي حاول استيعابهم كي لا يبقوا جسماً غريباً في خاصرته قابلاً للتحول إلى أدلة غربية معادية لاستقرارهم.

٣- ضد الفرق المسيحية من روم ويعاقبه «سريان» وكاثوليك الذين سعوا إلى إقناع الموارنة بمعتقدهم.

هذه الصراعات اتخذت أحياناً طابعاً سلمياً، وسويت أحياناً أخرى بالقمع والدم مما زاد من تمسك الموارنة باستقلالهم متحولين من النزعة الوطنية الاستقلالية إلى المغالاة في الانطواء عن العالم الخارجي، أي عن الغرب والإسلام والفرق المسيحية الأخرى، وبدأوا تالياً يعيشون حياة عزلة لازمتهم في مراحل تاريخهم اللاحقة.[1]

إن الخصوصية التي أوجدها «الماروني» في البقعة التي عاشها وحلم أن يحققها كياناً قومياً له، وهو ما أوجد صراعاً دموياً بين مؤيدي هذه الفكرة «الكتائب اللبنانية» ومعارضيها بتوسعتها إلى سوريا الكبرى في ظل علمنة تشمل الجميع وهم «القوميون السوريون» و«الإسلاميون» في المراحل الأول ثم «العروبيون»، جعل الكثير من مآثرهم يضيع في ظل الصراعات السياسية حيث تعزز دور السلطة المركزية الأبوية التي تولاها رجال الأكليروس أصحاب النفوذ الاقتصادي «مالكو الأراضي الزراعية» وأصحاب النفوذ الديني «الطاعة الكنسية».

---

(١) صحيفة النهار ــ بيروت ١٩٩٩/٢/٩ ص١٥ سركيس أبو زيد الموارنة: سؤال مستمر عن الهوية.

فالموارنة هم من أقدم الطوائف المسيحية الشرقية الذين فتحوا صفحة التبادل الثقافي مع الغرب، وأقدم المدارس المسيحية قبل عصر النهضة نشأ في لبنان وأكثرها للطائفة المارونية، حيث كان لها نصيب كبير من «البعثات العلمية الغربية»، إذ تعهد لويس الرابع عشر بتعليم أولاده الموارنة في المدرسة اليسوعية بباريس مجاناً، وأسس البابا غريغوريوس الثالث «الثالث عشر» مدرسة خاصة بالموارنة في روما أخرجت كثيراً من الكهنة والقسيسين، بعضهم عاد إلى بلاده ينشر علوم الغرب ويبث محبته في النفوس، والبعض الآخر بقي في أوربا ونال مناصب علمية كبرى في النمسا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا. و«لهذه الطائفة الأسبقية الأولى في إنشاء المدارس بلبنان وكان أساتذة هذه المدارس بوجه الإجمال الكهنة إلا نادراً، ناهيك بالمدارس الصغرى التي كانوا ينشئونها في الأديرة ويسمونها (انطوش) مثل انطوش جبيل أنشئ سنة ١٧٦٢ وانطوش زحلة عام ١٧٦٩ وانطوش دير القمر ١٧٨٢ وغيرها».[١]

ولا يمكن أن ننسى دور الموارنة في تجديد اللغة العربية وحفظ اللغة السريانية.. و«تكاد المخطوطات السريانية الموجودة في مكتبات الفاتيكان وفلورنسا أن تعادل مثيلاتها الموجودة في المنطقة العربية. فمنذ أيام الجاثليق يهب آلاها الثالث «١٢٨١ــ ١٣١٧» وإلى العام ١٩٢٩ انهال رجال الدين من الموارنة والسريان الكاثوليك والكلدان على التبرع بدرر المخطوطات السريانية إلى المكتبات التي ذكرناها»[٢].

كنيسة
الروم الأرثوذكس

كنيسة الروم الأرثوذكس كنيسة عريقة في القدم، ولولا وجود الكنيسة السريانية وتكلم المسيح بلغتها وهي اللغة القومية في هذه البلاد فيما اليونانية كانت لغة الأجانب، لكانت هذه الكنيسة لها حساب آخر في تاريخ المسيحية.

وتعاظم شأن هذه الكنيسة وغدت عالمية بشمولها شعوب عديدة في الألفية الأولى لميلاد المسيح، ومن أحداثها الجسام الانشقاق الكبير سنة ١٠٥٤ حيث أصبحت أرثوذكسية

(١) مجلة الهلال ــ القاهرة السنة التاسعة ص٢٣٦ ١٩٠١.

(٢) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٤٦/٣٢ شباط الفيكونت فيليب دي طرازي: اتحاف السريان مكتبات الفاتيكان وفلورنسا بمخطوطات شرقية.

وكاثوليكية، هذا فيما خص الكنيسة ككل، وجعل انشقاق آخر عام ١٧٢٤ حيث ظهر اليوم الكاثوليك مما أضعف من قوة هذه الطائفة.

وفي تاريخها نرى أن الحرب الصليبية شكلت هوية أخرى للروم.. هي الهوية الوطنية والعربية، ففي الوقت الذي انقسم به الموارنة حول هذه الحروب، كان الأرثوذكس الذين شكلوا في ذلك الوقت الأكثرية المسيحية الساحقة في سوريا التاريخية، ضد الصليبيين بشكل حاسم. هذه الصلة التي ذكرت، توطدت في القرن السادس عشر مع نظام الحماية الذي أطلقه فرنسوا الأول ملك فرنسا، والذي كان يقصد به حماية الرعايا الفرنسيين في السلطنة العثمانية، إلا أنه امتد من حماية الرعايا الإفرنج لينسحب على بعض المسيحيين العرب.

«طبعاً في الوجدان الإسلامي إذا أعطيت الحماية لبعض المسيحيين فكأنها أعطيت لجميع المسيحيين، لأن هذا الوجدان الإسلامي يوحد بينهم. على أن هذا لا يمنع الحقيقة التي تؤكد أنه لم يكن للمسيحيين الأرثوذكس ولا مرة واحدة في التاريخ أي ولاء لخارج الوطن، بما في ذلك روسيا، فروسيا دخلت على خط الحماية في المنطقة في القرن التاسع عشر، وكان هذا لمصلحة التوسع الروسي على حساب الإمبراطورية العثمانية. ورغم وجود علاقات إيمانية روحية بين الكنيستين الأرثوذكسية العربية والروسية إلا أن الأرثوذكس العرب ما كانوا قط تابعين لروسيا سياسياً.. هذه الظاهرة التاريخية كانت بداية تدخل الأجانب في هذه المنطقة».[1]

وهناك رأي آخر يقول: كانت الدولة العثمانية، بصفتها دولة إسلامية، تعامل المسلمين العرب معاملة خاصة تختلف عن معاملتها للمسيحيين العرب كل الاختلاف و لم تكن لتساوي في الحقوق والواجبات فيما بينهم، وكلهم رعاياها، مما أوجد حجة للدول الأوروبية لبسط نفوذها بسبب المعاملة المتميزة، فادعت روسيا حماية الأرثوذكس، وادعت فرنسا حماية الكاثوليك وبريطانيا حماية البروتستانت واليهود والدروز.[2]

على أن شرخ انشقاق طائفة الروم العرب إلى قسمين لا زال يثير الأسى، ويقول مطران الروم الأرثوذكس في مصر بولس ميناس: بدلاً من أن تبشّر الكنيسة الكاثوليكية الوثنيين مثلاً، تسعى لتضم إليها المسيحيين من ذوي المذاهب والنحل الأخرى. فمنذ ٢٥٠ سنة لم تكن هناك طائفة روم كاثوليك، بل كان هناك في الشرق، طائفة واحدة تتبع الطقس البيزنطي. ولكن البعثات اللاتينية القادمة من الغرب أخذت تجذب الأرثوذكس إلى الكنيسة الغربية عن طريق

(١) مجلة الجدار ــ بيروت السنة الأولى ١٩٩٤ ص١٦ حوار مع المطران جورج خضر مرجع سابق.
(٢) حنا مالك: الدولة والقومية العربية والدين والوحدة مطابع ألف باء ــ دمشق ١٩٨٦ ص٧٠ مرجع سابق.

المدارس والمستوصفات المجانية وغير ذلك من المساعدات الأخرى، الأمر الذي أدى إلى انتشار الطوائف الكاثوليكية، سواء عند الروم والأقباط أو الأرمن أو السريان.[1]

وقد أدى كل ذلك حين انبعاث فكرة القومية العربية أن تشبث بها الروم، حتى أنه أطلق على أحد بطاركة هذه الطائفة لقب «بطريرك العرب»، وهذا التأكيد لعروبة هذه الطائفة يأتي على الصعيد الديني بعد أن جرى في ٣١ تشرين الأول عام ١٨٩٩ تنصيب ملاتيوس الدوماني، مطران اللاذقية، بطريركاً على إنطاكية وسائر المشرق. هذا الحدث اعتبر يومذاك انتصاراً للفريق المسمى «وطني» على الفريق المعرّف عنه بـ «اليوناني» الذي حسب أنه استأثر بالكرسي تعسفاً منذ أن انشق الملكيون الكاثوليك عن كنيستهم الأم سنة ١٧٢٤.

وتعتبر الكنيسة أنها السلطة الشرعية في السلطة، وبها منوط أمر الحكم فيها. أما العلمانيون، لها، فهم ولا شك مع الرعاة «الكنيسة»، ولكن شأنهم في الكنيسة لا يتعدى حد المؤازرة إذ مسؤولية الرعاية ليست منوطة بهم بالأساس ولا بالدرجة الأولى.

وحسب النظام الأساسي لبطريركية الروم الأرثوذكس «١٩٧١» المجمع المقدس هو السلطة العليا في الكنيسة، ويشترك في حياة الكنيسة الأكليريكيون والعلمانيون كل حسبما أعطي له من مواهب الروح. والمقصود في مفهوم «أكليركي» البطريرك والمطران والأسقف والكاهن والشماس، وكل واحد من هؤلاء خادم للرب ولشعبه وخدمته مجانية بحيث لا يتقاضى أجراً أو مالاً مقابل إقامته الخدم الروحية.

وحسب نظام ٢٨ تموز ١٩٧٣ للمجالس الملية الأرثوذكسية يتم اختيار مجلس الرعية بالتفاهم بين راعي الأبرشية والرعية المعنية، دون أن يذكر بالانتخاب، ولكن يفهم من النص «التعيين».

أما المجمع المقدس فهو القاضي في شؤون الإيمان، وهو الهيئة التشريعية في الكنيسة والمرجع القضائي الأعلى فيها.

وينبثق عن أبناء الرعية الواحدة مجلس منتخب وفقاً للنظام الداخلي مهمته الاهتمام بشؤونها برئاسة الكاهن. ويدعو البطريرك كل سنة، ولدى الاقتضاء، إلى مؤتمر أرثوذكسي عام للكنيسة الإنطاكية تتمثل فيه الأبرشيات باكليريكيين وعلمانيين، غايته الأعمال والتعاون بين الأبرشيات والتخطيط لتنمية الطاقات الأرثوذكسية، ثم يرفع المؤتمر توصياته إلى المجمع المقدس.

---

(١) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٧١/٥٧ نيسان ص٢٥٦.

ويرى الكثير من الأرثوذكس أنه آن الأوان ليعود الروم الكاثوليك إلى الأرثوذكسية، وأن «التبشير» وسيلة اخترعها اللاتين لأجل تخريب المسيحية الشرقية وجرها إلى طاعة البابا. وكثير من هؤلاء يطالبون روما بإلغاء هذه الكنائس كشرط لنجاح حوارهم المسكوني معها سعياً إلى إعادة الوحدة بين الكنيستين.

والثقل الكمي لأعداد الروم الأرثوذكس في البلدان العربية هو في سوريا.. إنهم على رأس قائمة نفوس الطوائف المسيحية في هذه البلاد، وكان الطابع الريفي إلى الستينات في القرن العشرين يغلب على عددهم في المدينة، وفي الثلث الأخير من ذاك القرن نزح قسم كبير منهم واستوطنوا المدن وغدوا أطباء ومهندسين وغير ذلك. واستوعبت الوظيفة الحكومية الكثير منهم وبات عددهم كبير في جهازها.

أما في لبنان فإن أهم رأسمالي وطبقته العليا فهم من الروم الأرثوذكس فيما بقية الروم يسكنون في قرى متناثرة هنا وهناك.

وفي بقية البلدان العربية لم يحقق أبناء هذه الطائفة ما حققه أخوتهم من الروم الكاثوليك، وقد حافظوا على معدل متدنٍ من الهجرة إلى الخارج.

وأخيراً فإن أهم قادة مؤسسي الأحزاب العقائدية العربية في هذه المنطقة ــ سوريا ولبنان وفلسطين ــ وكبار الأكاديميين العرب كانوا من أبناء طائفة الروم الأرثوذكس.

الروم الكاثوليك(*)

ليس هناك في العالم من إنسان ينتمي إلى طائفة «الروم الكاثوليك» إلا وأصله من هذه البلاد السورية، هذا إذا جاز التعبير أن الروم بالكامل أصلهم من هنا، ويربط أبناء هذه الطائفة بطريرك واحد سلطته على كل مكان يتواجد به أبناء هذه الطائفة، كما هو الشأن للسريان والموارنة.

وقد كان لأبناء هذه الطائفة الدور المجلى في الدعوة إلى عروبة المنطقة وإلى بث الوطنية في النفوس، والاعتزاز بأرض الوطن، وعددهم هنا أقل من مهاجريهم والهجرة منهم إلى الأمريكيتين كبيرة وواسعة.

(*)وردت لفظة كاثوليكية صفة للكنيسة لأول مرة في كتابات القديس أغناطيوس الأنطاكي (١٠٩): «حيث يكون الأسقف هناك يجب أن تكون الرعية كما أنه حيث المسيح تكون الكنيسة الكاثوليكية» (رسالة إلى أهل أزمير ٨: ٢).

امتاز أبناء هذه الطائفة بالعلم والتجارة، وقد سيطر تجارهم في مرحلة من المراحل على سوق التجارة في حلب، أيام كان لهذه المدينة السهم الأول في إحياء هذه المنطقة، وخرج منهم فحول الأطباء والمهندسين. وكانت هجرتهم الكبرى أيام الوحدة السورية ــ المصرية، من سوريا إلى لبنان فبلاد الاغتراب.

وخسرت الطائفة معقلاً كبيراً من معاقل قوتها العلمية حين أممت مدارسها في هذه المنطقة، حيث كانت هذه المدارس «جامعات صغيرة» خرّجت العديد من أهل العلم والوطنية.

ويمكن لنا تناول أبناء هذه الطائفة في مصر على سبيل التمثيل، فنقول ان الروم الكاثوليك في مصر أصلهم سوري أو لبناني أو فلسطيني، أي من البلاد التي يطلق عليها اسم «بر الشام» ولذلك يسمونهم «الشوام». وقد بلغوا في مصر شأناً كبيراً في مجالات العلم والأدب والصحافة والفن والمال والصناعة والطب والمحاماة والهندسة، وفي الهيئات الاجتماعية. وقد يكونون بلغوا أوجهم في مطلع الخمسينات، وكان عددهم نحو ٢٨ إلى ٣٠ ألفاً، ولا أقل من ألفين في السودان. أما بعد هجرتهم الجديدة من مصر إلى لبنان وكندا والولايات المتحدة فقد نزل عددهم إلى أقل من النصف.

وحين جاء أبناء هذه الطائفة إلى مصر وجدوا أنفسهم تحت ولاية الآباء الفرنسيسكان الذين كانوا يسوسون مصالح الكاثوليك الروحية سواء كانوا من الطقس اللاتيني أم من أحد الطقوس الشرقية. واستمرت الحال على ذلك إلى سنة ١٧٧٢ حيث وضعهم البابا أكليمنظس الرابع عشر تحت ولاية بطريركية إنطاكية للروم الملكيين. وفي سنة ١٨٣٨ أذن البابا غريغوريوس السادس عشر لمكسيموس الثالث مظلوم بأن يتخذ لقب بطريرك إنطاكية والأسكندرية وأورشليم وهكذا كان إلى الآن.

إن طائفة الروم الكاثوليك لم توجد فعلاً إلا منذ عام ١٧٢٤، أما كيف نشأت فيرجع إلى أنه كان يظهر في الكنيسة البيزنطية في الشرق بطاركة وأساقفة يميلون إلى الاتحاد مع روما وغيرهم يريدون البقاء منفصلين عنها، فما كان من روما إلا أن حسمت الوضع وسمحت بتأسيس كنيسة مستقلة للروم الكاثوليك في الشرق تكون متحدة بروما. وإثباتاً للحق نقول إن بعض العلماء اللاهوتيين والمتخصصين في التاريخ الكنسي قد انتقدوا هذه السياسة التي اتبعتها روما في هذا الصدد.[1]

(١) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٧١/٥٧ نيسان ص٢٥٦.

ويشرح البطريرك حكيم هذه العبارات قائلاً: إن انقسام (١٧٢٤) كان له جذور بالنسبة لمن أصبحوا كاثوليك، فقد كان البطاركة يعون أنهم رؤساء لكنيستهم المحلية مستقلون استقلالاً ذاتياً، وما كانوا يجدون صعوبة في الارتباط بعلاقات أخوية مع الأحبار الرومانيين وفي الاعتراف لهم بالأولية التي نودي بها في مجمع فلورنسا. بينما كانوا من جهة أخرى يحافظون بكل بساطة على الاتصال الأخوي بسائر الكنائس الأرثوذكسية، فهم كاثوليك وأرثوذكس معاً.

وتولد عن الحقبة التي انفصلت بها الكنيسة عام ١٧٢٤ حقبة «الخضوع لروما والعودة إلى حظيرة بطرس» تحت تأثير المرسلين اللاتين الذين أتوا بكثرة يشتغلون في البطريركية الانطاكية، مع الأفكار التي كانت سائدة حينئذ بشأن أفضلية الطقس اللاتيني على سائر الطقوس، وضرورة «حجد الأرثوذكسية». هذه الحقبة قطعت الروم الكاثوليك عن أخوتهم الأرثوذكس، وأنارت عليهم الاضطهادات التي عانوا منها عدة سنين، وزادت المسيحية ضعفاً في هذه المنطقة. وهذا الاختبار الذي جربناه لم يأت بالنتيجة التي كنا ننتظرها، فنعترف اليوم أنه فشل نصف فشل لأن أسسه اللاهوتية والكنسية لم تكن سليمة.[1]

وسعت طائفة الروم سريعاً إلى «عوربة» طقسها حيث أصبحت اللغة العربية لها منذ زمن سحيق، لغة الشعب، ثم لغة الليتورجيا، باستثناء بعض التجمعات اليونانية في القدس والإسكندرية وسينا. وقد نظم القسم الأكبر من الأناشيد الطقسية اليونانية شعراء قديسون سوريون، ترجمت فيما بعد إلى اللغة العربية نثراً. «وقد قضينا ردحاً طويلاً من الزمن وترانيمنا البيزنطية العربية تحفظ سماعاً، وكنا نفتقر إلى كتب موسيقية عربية تحوي بين دفتيها أنغامنا الدينية مضبوطة بالعلامات حتى أواخر القرن التاسع عشر. فإذا ما أراد المرنم أن ينشد قطعة ارتجل نغماً يجاري به، وسع المستطاع، نغم النص الأصلي اليوناني أو لا يجاريه، بدون اكتراث لمقتضيات اللغة العربية. وفي أوائل القرن العشرين أخذ بعض الموهوبين المتعلمين يدوّنون أنغام الأناشيد الطقسية العربية بالعلامات البيزنطية مستعملين، في سبيل نشرها الآلة الناسخة ثم المطبعة في العقد الرابع من القرن العشرين».[2]

لم تمر الكثلكة على هذه الطائفة بالنعم الدائمة.. صحيح فتح لها باب العلم والمعرفة من الغرب منذ زمان بعيد، ولكن «اللاتين» ــ وهم كاثوليك أيضاً ــ حاولوا أن يجهضوا هذه الطائفة أو يقللوا من دورها في هذه المنطقة أو «ليتنة» رعاياها، وكان نزاع كبير استمر بينهما إلى مرحلة قريبة.

---

(١) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ٥٩ /١٩٧٣ آذار ص٢٠٧ البطريرك مكسيموس الخامس حكيم.
(٢) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ٥٨ /١٩٧٢ تموز ص٥٦٣.

إن كثلكة الغرب ذات الوجه اللاتيني الواحد لم تستطع استساغة كثلكة شرقية تعددية، ونسوا ــ أو جهلوا ــ أن الكنيسة لا يمكن أن تكون حقاً كاثوليكية ــ أي جامعة ــ إلا بهذه التعددية التي تصير كلاً للكل في وحدة المسيح. وكانت النتيجة أن الكنائس الكاثوليكية الشرقية لاقت في الغالب من كاثوليك الغرب، حتى في عقر دارها وضمن حدود ولايتها، أنواعاً من المقاومة المزاحمة مختلفة الوسائل لم تكن تتوقع مثلها. ولما لم يكن ممكناً أمر إزاحة تلك الكنائس ــ ولا وارد أمر إزالتها، لأنها، في نظر أكثرهم «الأداة لاستعادة المنفصلين» ــ كان لابد من القبول بوجودها كضربة لازب وكأهون الشرين. ولكنه قبول تخامره الريبة والحذر: فهل ترى الشرقي يستطيع حقاً أن يكون كاثوليكياً كاملاً يوثق به؟ فلا بد من تشديد الرقابة عليه ما أمكن، والتدخل في شؤونه الخاصة كلما سنحت الفرصة[1]

والحنين إلى وحدة الكنيسة الأم لازال حلماً يراود الكل «إن التراث الشرقي رأس مال مشترك بين الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس، وهو النواة الحية الأساسية لما يجمع الاثنين، وهو أكثر جداً مما يفرقهم، ونابع من قرابتهم الدموية «إن جاز التعبير» مع بعضهم البعض. وقد أشار المجمع الفاتيكاني إلى وجوب صياغة هذا التراث الشرقي قائلاً «إن هذا المجمع يكتفي بتقدير هذا التراث الكنسي والروحي حق قدره، والثناء عليه بما يستحق من المديح، بل يشدد أيضاً على وجوب اعتباره تراثاً عاماً لكنيسة المسيح الجامعة» (الكنائس الشرقية رقم ٥)[2].

(١) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ٦١ /١٩٧٥ أيار ص٤١٤.

(٢) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ٥٧ /١٩٧١ تشرين الثاني ص٦٩٠.

خاتمة

إن أي شعب ينكفئ على ذاته في محارة التعصب الديني لا يستطيع سبيلاً إلى مجاراة الشعوب الراقية ولو كانت سماؤه وأرضه وأحواف أرضه محيطات من الذهب، والتعصب الديني ينوب في أيامنا عن الأيديولوجية التطرفية.

وقد مر معنا من خلال الصفحات الماضية كيف كان العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين وتعايشهم ليس مسألة سياسية فقط، هو بالعمق مسألة قومية. إنهم شعب واحد في منطقة حضارية تجلت فيها الرسالات، والمسيحية المشرقية لا تخاف الإسلام لأنها تعايشت معه أربعة عشر قرناً وساهمت في بناء الحضارة العربية واشتركت معه في الحروب والأحزان وتقاسمت معه أفراح النصر.

المفكرون المسلمون يبادرون باستمرار إلى فتح حوارات مع المسيحيين، والسياسيون المسلمون من النادر ألا يضعوا موظفاً عندهم لا عمل لديه أكثر من فتح المزيد من العلاقات الودية مع المسيحيين. وحتى الرأسماليون يسلمون أشغالاً لهم لصالح بعض المسيحيين على الأقل.

إذاً، المسيحيون موجودون وقادرون على المتابعة في المشاركة، والتاريخ مازال منهم ولهم فيه الآخرون.

والواقع أن افتقاد المسيحيين في سوريا الطبيعية هو بلا شك خسارة وطنية عربية، وخسارة حتى للكنيسة العالمية لأن الوجود المسيحي في الشرق هو أساس الوجود المسيحي أصلاً، وهو رمز الاستمرارية ووجه الرسالة المفترضة، وغياب المسيحيين يفقد صورة الإسلام المنفتح على العالم الذي يحاول الغرب بأي شكل من الأشكال تشويهه.

القوة التنظيمية للكنائس

من تعمق في تاريخ الأديان وعلاقاتها بالمجتمع البشري تبدى له مدى التأثير والتأثر بين الدين والمجتمع. فغاية الدين عبادة الله. ولكن الدين لا يمكن فصله تماماً عن المجتمع من غير هضم لحقوق الإنسان الأولية، لأن الإنسان على الأرض لا يمكنه، في حياته الاجتماعية، إلا أن يكون على صلة بما هو أبدي من جهة، وبأخيه الإنسان من الجهة الأخرى، فيكون له الدين والدنيا معاً بمثابة جناحين لا يمكن الاستغناء عن أحدهما.

ويظهر الدين على أنه أحد العناصر الأساسية في الثقافة العربية حيث إنه يتعاون مع عنصري الأرض والعائلة على تشكيل خبرة الإنسان المعرفية ــ الروحية. فليس الدين معرفة نظرية بقدر ما هو مجموعة من القيم الأساسية التي تنتقل من جيل إلى آخر في إطار التنشئة الاجتماعية الثقافية. وينظر عفيف طنوس في دراسته للمجتمع العربي إلى الحياة الدينية ضمن إطار مجتمعي شامل معتبراً إياها ظاهرة اجتماعية، في حين أنه يبقى على أصالتها بصفتها خبرة راسخة في كيان الإنسان دون اختزالها إلى أجزائها.[1]

وفي ما يخص التنظيم الاجتماعي عند مسيحيي الشرق وكنائسهم، فإن الكنائس المسيحية الشرقية هي طوائف، والطوائف جماعات اجتماعية يربطها أصلاً إيمان واحد وطقوس دينية. ولهذه الطوائف المكونة على مر التاريخ أجهزتها الدينية الخاصة. أما بنى هذه الأجهزة فتتفاوت وتتنوع بين طائفة وأخرى، وهي ذات أدوار متعددة، بغض النظر عن دورها الديني الصرف. فهي تشرف على جهاز الطائفة القضائي المختص بشؤون الأحوال الشخصية. وغالباً ما تشرف جزئياً على الجمعيات الطائفية المتعددة، وعلى المؤسسات الاجتماعية والخيرية، والمستوصفات والهيئات الثقافية والأندية والحركات الشبيبية، والجمعيات ذات الغايات الدينية البحتة. إن معظم الطوائف تملك عقارات تكوّن مصادر دخل لأجهزتها ومؤسساتها. ولدى الطوائف غالباً هيئات تمثيلية تدعى «المجالس»، كما تتمثل أحياناً في مختلف هيئات السلطة السياسية والإدارية العامة. وكثيراً ما تكون لهذه الطوائف علاقات مميزة بالمراكز العالمية أو الإقليمية للعائلات الروحية التي تنتمي إليها.[2]

---

(١) مجلة المشرق ــ بيروت السنة ٦٦ الجزء الثاني ١٩٩٢ ص٢٩٥.

(٢) مجلة المشرق ــ بيروت السنة ٦٩ الجزء الثاني ١٩٩٥ ص ٣٨٠ الدكتور بطرس ليكي: دور مسيحي لبنان والمشرق.

ويتضح مما ذكرناه أن علاقة المسيحي بطائفته تمر ــ عدا عن جانبها الروحي ــ بنواح تنظيمية عدة. ولهذا فإن أي اختلال بين ابن الطائفة وطائفته هو انتكاس للطرفين ينعكس سلباً على مكانتهما.

التعاون والخوف

إذا اعترف المسيحيون بأن التاريخ تغير إلى غير مصلحتهم السياسية فهذا يساعدهم على معرفة واقعهم أكثر. لكنهم إذا اعتبروا أنه لم يعد لهم مكان في التاريخ السياسي المعاصر فهذا إجحاف في حق أنفسهم وفي حق المسلمين أيضاً.

صحيح حدثت تطورات كثيرة خلال الخمسين سنة الأخيرة أضعفت من مركز المسيحيين في المنطقة لأسباب عدة منها ما يراه البعض في أن دول عربية لا توفر التسهيلات المطلوبة للمسيحيين ليعيشوا بكرامة من خلال ممارسة شعائرهم الدينية أو حتى فتح دور عبادة أو مؤسسات خاصة أو عامة، والمصادرات التي تمت لمدارسهم وجمعياتهم والتحول الذي حدث في نمطية اقتصاديات بعض البلدان، مما أفقد الاحتفاظ بالقدرة العلمية والمالية لهذه الجماعات، وهذا بعث عند البعض عقدة الخوف التي استمدت استمراريتها من حوادث تاريخية قديمة، يذكر منها المطران جورج خضر «إنه بين الحين والآخر كان القمع يمارس على المسيحيين في ظل الحكم العربي الإسلامي، وبنوع خاص منذ بداية العهد العباسي، حيث كان هناك تدخل في حرية العبادة وكان هناك إغلاق لكنائس وأديرة. وإن حدث بأن روعي المسيحيون كأفراد بكونهم لم يقتلوا أو يذبحوا، فإن الجو المسيطر كان جو نظام أهل الذمة. وهذا يعني بأن الشرع القائم آنذاك يقول بأن الأمة هي أمة المسلمين، ومن هم من غير المسلمين فإنه في ذمة الإسلام ورعايته، وأحس المسيحيون بأنهم مستصغرون وأنهم بالتالي خارج الأمة».[1]

وينقل نفس الكاتب كيف عومل المسيحيون باحترام وإكبار في مراحل أخرى قائلاً «إن استخدام المسيحي لا يشكل خطراً على الحاكم لأنه لا يجرؤ على التدخل في شؤون الحكم والاشتغال بسياسة الدولة العامة، وفي ذلك قول بعض الخلفاء «يقول عبيد الله بن سليمان للخليفة المعتضد معتذراً: ما وليت نصرانياً سوى عمر بن يوسف واعتمدت عليهم لثقتهم لا

(١) مجلة الجدار ــ بيروت السنة الأولى ــ العدد الأول ص١٦ من مقابلة مع المطران جورج خضر مرجع سابق.

ميلاً إليهم، ولكن لثقتي بهم. فقال المعتضد إذا وجدت نصرانياً يصلح لك فاستخدمه فهو آمن من اليهود لأن اليهود يتوقعون عودة الملك إليهم وآمن من المسلم لأنه بموافقته لك في الدين يروم الاحتيال على منزلك وموضعك وآمن من المجوس لأن المملكة كانت فيهم».[1]

وبما أن التعايش المسيحي ــ الإسلامي قيمة قلما هي موضع نقاش، فإن التزام مسيحيي الشرق بالنضالات الاجتماعية والسياسية يكون في التحرر من وضع دوني أو الدفاع عن وضع مساواتي هو الحافز الأهم، سواء أمعلناً كان الحافز أم لا. لأن أصحاب التيار الأول يرون أن المسيحيين ذوي الوضع الدوني يتحررون بتحرر المجتمع بأسره، وأصحاب التيار الثاني يرون أن عليهم أن يناضلوا صراحة من أجل الحصول على المساواة أو الدفاع عنها.

إن المسيحيين المشرقيين تتقاسمهم عقدة الخوف لاعتبار أنفسهم أقلية محكومة تعاني ذل الخنوع والحساسية من الآخرين. ولكن تتقاسم المسيحيين أيضاً عقدة التفوق، التي تريهم أنفسهم أقوى من الآخرين وأرفع شأناً، كونهم قدامى السكان فيثيرون خوف الآخرين والحذر منهم. والمسؤولية فيما يحصل تتحمله الحكومات العربية التي يتوجب عليها تشجيع المسيحي على الانصهار في محيطه وتسهيل نمط حياته عموماً. هذا الواقع يمارسه اليهود في الأراضي المقدسة عبر تشجيع هجرة المسيحيين منها لتبقى فلسطين أرضاً مقدسة سياحية لا أرض حج وقداسة.

إن المسيحيين في سوريا الكبرى سيظلون شاهداً للحق والحقيقة، يجتازون مراحل الصعاب، مرحلة تلو مرحلة، ولا تزيدهم الأزمات إلا تأصلاً في أرضهم، وتبلوراً، وزخماً دافقاً بالخصب والنماء.

حرب الكنائس والرعايا

هناك حرب خفية تظهر أحياناً وتبقى مستترة في أوقات أخرى بين رجال الأكليروس والشعب، أو بين الطوائف المسيحية ذاتها، وهو ما سوف نعرض لبعض منه.

فقد صمدت الكنيسة المسيحية لألفي عام في وجه الكثير من الانقسامات والانشقاقات والعواصف التي احتاحتها من الداخل والخارج.

---

(١) صحيفة النهار ــ بيروت ملحق يوم ١٩٩٩/١٢/٤ ص٧ المطران جورج خضر.

وكانت هذه العواصف تتأتى بين رجال الدين والعلمانيين أو بين رجال دين من نفس الطائفة أو بين عدة طوائف متشابكة في أمور ميتافيزيقية أو معيشية.

وكمثال على ذلك ما أثاره فؤاد معتوق[1] من تعليق على مقالات جوزيف سامي منصور الذي يريد مجلساً أعلى منتخباً تمثيلياً يتولى علاج قضايا دينية وزمنية ووطنية لطائفة الروم الكاثوليك.

وفي نهاية عام ١٩٦٨ دعا نفر من الشبيبة المسيحية وعلى رأسهم متروبوليت بيروت للروم الكاثوليك المطران غريغوريوس حداد إلى إصدار بيان جاء فيه:

١- رفض الانتماء إلى مجتمعات طائفية منكمشة على نفسها وعلى امتيازاتها وتريد الانتماء كلياً إلى كنيسة المسيح وحدها.
٢- رفض الثراء المادي «المال والملكية والأرض والمشاريع» والنفوذ السياسي للكنيسة الكاثوليكية وأن تكون هناك كنيسة عاملة خادمة وفقاً لمشيئة المسيح.
٣- رفض كنيسة تدافع عن نظام الاستثمار الاقطاعي والرأسمالي القائم في لبنان أو تساهم فيه. وأن تكون هناك كنيسة ملتزمة ومعنية بالمسائل التي تهم كل فئات الشعب، وتسير إلى جانبه في سبيل تحرره الاقتصادي ونحو تحقيق أمانيه في حياة إنسانية كاملة.
٤- رفض كنيسة غريبة عما حواليها ومرتبطة بالحضارة الغربية، وأن تكون هناك كنيسة ومسيحيين يعتبرون أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي، يشاركون في قضاياه ونضاله وأمانيه نحو التحرر وبناء مجتمع متطور لأعضائه كافة. وهذا يفرض التعاون تعاوناً كلياً مع الشعب الفلسطيني في كفاحه من أجل استعادة حقه في وطنه.
٥- يجب أن تكون هناك كنيسة ومسيحيون يكونون بالفعل جزءاً لا يتجزأ من العالم الثالث الذي ينتمي إليه لبنان، وهذا الأمر يقتضي المساهمة فعلاً في الكفاح الدائم الذي يقوم به هذا العالم الثالث للتحرر من كل أنواع الاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي.

ولم يكن لبيان كهذا أن يمر مرور الكرام، خاصة في تلك الأوقات التي أعقبت هزيمة ١٩٦٧ والأحداث الطلابية في فرنسا، واشتداد المقاومة الفلسطينية، وقد كتب الكثير من المقالات في هذا الموضوع مثيراً زوبعة من الجدال في أوساط كنائس مسيحية كثيرة، على أن الأمور ما لبثت أن هدأت.

---

(١) مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٦٩/٥٥ شباط ص١٤٢.

وهناك توتر آخر ظهر في مصر بين رجال دين شرقيين وإصلاحيين وبدا علانية في وسائل الإعلام المصرية، من ذلك الخلاف بين البابا شنودة الثالث (بطريرك الأقباط) والقس الراحل إبراهيم عبد السيد الذي كان علناً يتداول هذا الخلاف من خلال وسائل الإعلام، إذ لم يكن عبد السيد يترك تصرفاً أو قراراً للكنيسة القبطية، وعلى رأسها شنودة إلا وتناوله بالنقد والتعليق، حتى صار ما يصدر عنه من ردود على قرارات شنودة والكنيسة مادة ثرية للصحف ووسائل الإعلام (وعكست الطريقة التي تعاملت بها الكنيسة مع عبد السيد بعد وفاته حجم الخلاف بين الطرفين، إذ اضطر أهل المتوفي إلى نقل الجثمان من كنيسة إلى أخرى بعدما رفض المطارنة والقساوسة الصلاة عليه)[1].

وهذا ما جعل الكثير من الصحف المصرية تنشر عقب ذلك مقالات لعلمانيين أقباط كبار وعلى رأسهم الشخصية المصرية المعروفة ميلاد حنا الذي ندد بذلك مطالباً بـ (وضع منظومة هيكلية إدارية تنظم عمل الكنيسة وتحدد المسؤولية لكل مستوى من مستويات العمل داخلها) [2] بعدما استغرب تصرف البابا شنودة ضد (جثة رجل حاول تغيير الفكر الموروث من العصور الوسطى).

وإذا كان هناك من خلاف بين رجال الدين والعلمانيين أو بين رجال دين طائفة من الطوائف المسيحية، فإن الخلافات بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت ظهرت تفاصيلها أكثر من مرة في وسائل الإعلام المصرية، أكثر ما أظهر ذلك إعلام سورية. نذكر هنا ما حدث لمشروع قانون الأحوال الشخصية للأقباط الذين تم تقديمه إلى مجلس الشعب المصري عام١٩٧٩ بعد أن وقعت عليه قيادات الكنائس الثلاث الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية، وكان ينص على أن هناك سببين للطلاق هما الزنا وتغيير الديانة، مع احتفاظ الكاثوليك بمنع الطلاق تماماً، ولكن (بعد تولي القس د. صموئيل حبيب رئاسة الطائفة خلفاً للقس مقار سحب موافقة الطائفة على هذا المشروع وأعلن ذلك على الملأ لأنه وجد أن الكنيسة الإنجيلية لديها أسباب أخرى تبيح الطلاق، و لم ير مشروع هذا القانون النور)[3].

أخيراً هناك صراع خفي ومعلن من قبل الطوائف المسيحية فيما نسبة قدسيها ورجال العلم بها إلى هذه الكنيسة أو تلك، ومن يقرأ التاريخ جيداً سيعرف الحقيقة، ولكنها حرب

---

(١) صحيفة الحياة ــ لندن ١٩٩٩/٩/٣ ص٩ محمد صلاح: البابا شنودة يرفض الصلاة على جثمان أبرز معارضيه.

(٢) صحيفة الحياة ــ لندن ١٩٩٩/٩/٤ ص٨ محمد صلاح: أقباط مصريون يحملون على شنودة.

(٣) مجلة روز اليوسف ــ القاهرة ١٩٩٨/٩/٢١ العدد ٣٦٦٧ ص٨٥، عاطف حلمي: خلافات الطوائف المسيحية في مصر.

إعلامية الفائز بها من يستطيع تكرار إثبات هذه الشخصيات لها. من ذلك ما يخص القديس يوحنا الدمشقي وقد أتينا على ما ينسب إلى أصل كنيسته وكنيسة جده، فيما يذهب الأب بواكيم مبارك إلى القول إن القديس مار أفرام السرياني الغربي (الذي سيصبح على التوالي يعقوبياً فملكياً ثم مارونياً)[1] علماً أن مار أفرام توفي عام ٣٧٥ ومار مارون الأول توفي سنة ٤١٠ والثاني الذي سميت الطائفة المارونية على اسمه هو مار يوحنا مارون، ولد وعاش في القرن السادس[*] كما يصعب أحياناً التكهن بالطائفة التي اتبعها الكثير من أعلام المسيحية الأوائل، وكمثال على ذلك ما يقوله الأب سمير خليل سمير عن ثاودورس أبو قرة (٧٥٥) على وجه التقريب.[2]

الكنيسة المسيحية ومغتربيها

ليس بخاف على أحد أن الاغتراب ظاهرة عالمية، كانت منذ القدم ومازالت تجتث من هنا وهناك الألوف والملايين من الناس لتزرعهم في أرض جديدة، سعياً وراء الرزق والاطمئنان والآمال. وقد عمت هذه الظاهرة العالم العربي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بحيث أصبحت بعض الكنائس منشطرة إلى شطرين، قد يكون المغترب منهما أكثف عدداً[**] وأحسن حالاً من الأصليين

وقد اهتمت الكنيسة بإيجاد صلة مع أبنائها المغتربين بإيفاد كهنة وأساقفة، لحقوا بالقطيع إلى حيث ذهب، وأقاموا معه، يحاولون لم شمله والحفاظ على خصائصه الأصلية وصقلها، دينية كانت أم قومية.

---

(١) مجلة المشرق ــ بيروت السنة ٧١ الجزء الأول ص١١٨ صلاح أبو جودة.

[*] راجع فصل: الطوائف المسيحية والبحث عن الهوية ــ الكنيسة المارونية في هذا الكتاب.

(٢) مجلة المشرق ــ بيروت السنة الثالثة والسبعون تموز /ك١ ١٩٩٩ الأب سمير خليل سمير: الجديد في سيرة ثاودورس أبي قرة وآثاره.

[**] للتدليل على ذلك نقول: إن هجرة السوريين واللبنانيين والمصريين إلى خارج الشرق في بدايات القرن العشرين جعلت أكثرية من نصف أبناء طائفة الروم الكاثوليك يتوطنون أمريكا الشمالية والجنوبية وغيرها من بلاد العالم. فالأرقام الإحصائية يمكن تقديرها اليوم (عام ١٩٧٠) بنحو ٣٤٥ ألف نفس في الشرق، منهم ٨٠ ألف نفس في سوريا، و٢٠٠ ألف في لبنان، وفي العراق والكويت وتركيا ٣ آلاف نفس، وفي مصر والسودان ١٢ ألف نفس، وفي فلسطين ٣٠ ألف نفس، وفي شرق الأردن ٢٠ ألف نفس.
كما أن هناك ٣٧٥ ألف نفس في المهجر منهم ٢٠ ألفاً في كندا و٧٠ ألفاً في الولايات المتحدة و١٥٠ ألفاً في البرازيل و١٠٠ ألف في الأرجنتين و١٠ آلاف في فنزويلا، و١٧ ألفاً في المكسيك وسائر البلاد الأمريكية و٥ آلاف في أستراليا و٣ آلاف في أوربا[x]

[x] مجلة المسرة ــ حريصا السنة ٥٦ /١٩٧٠ شباط ص١٥٦.

ولكن المشكلة التي تجابهها الكنيسة الشرقية هي ذوبان الأبناء في التنظيم الكنسي اللاتيني، وفي الحضارة الغربية، مما يفشل ترابط التوأم، المقيم والمغترب، ويعمق التماسك الصحيح بينهما والتفاعل الخلاق المرجو.

وفي سبيل إعادة هذه اللحمة بين التوأم يترتب على المغتربين أن يتحرروا من مركب نقص ورثوه أيام فقر وتشرد، ويقفوا معتزين بمنشأ عربي كريم، وينطلقوا في البذل والتنظيم، تضامناً مع أخوة لهم يعانون في بلادهم الأصلية مشكلات مصيرية ضخمة، قد تحول دون تطلعاتهم المشروعة، لا إلى الحرية والعدالة والوحدة فقط بل إلى الحياة كذلك.

وما يمكن قوله هنا، وبشكل أولي أن السبب الرئيسي وراء تفكك هذه الأسرة الاغترابية أو تلك، عائد لانتقالها من مجتمعات تحكمها ضوابط اجتماعية متنوعة ناتجة عن انتمائها إلى جماعة معينة، كبيرة كانت أم صغيرة، أكانت عائلة أو طائفة أو منطقة جغرافية، إلى مجتمعات تسودها مقاييس وقيم فردية، وحيث الفرد ينظر إليه كشخص بحد ذاته بصرف النظر إلى أية جماعة انتمى. «وفي مجتمعات الغربة هذه تولت الدولة مباشرة أو عبر المجالس البلدية مهمات كثيرة من رعاية وحفظ حقوق الأفراد وحتى الأسرة حسب قوانين محددة، وليس حسب انتماء الفرد إلى هذه الجماعة أو تلك، والدولة بذلك حلت محل تلك الجماعات وأفقدتها أهميتها. لكن رغم ذلك، مازال يمكن القول إن العائلة العربية بالذات في المهاجر مازالت بخير».[1]

ولكن إذا سلمنا بمقولة أن المسيحي ــ في لبنان ــ يهاجر من أجل أن يؤمن مسكنه وتعليمه وتطبيبه، فإن البعض يرى أن الثروة التي تعود لأوقاف الكنائس المسيحية في لبنان لا تقدر بثمن، ويذهب أحد المصادر إلى القول «تقدر الأراضي التي تعود إلى الديورة والمطرانيات في لبنان بسدس مساحة لبنان»[2].

وهناك رأي آخر يقول: إذا أراد كل مسيحيي لبنان أن تؤمن لهم المساكن والتعليم والطبابة فبإمكان ذلك على ضوء الثروة الكنسية الهائلة[3].

ومهما يكن، فإن الاغتراب ليس سببه المادة فقط وإنما له أسباب أخرى.

* * *

(١) صحيفة الحياة ــ لندن ١٩٩٩/١٢/١١ العدد ١٣٤٢٦ ص١٨ سامي ذبيان: الأسرة العربية المهاجرة.

(٢) سلوم سركيس: لبنان وفلسطين والمسيحية مصدر سابق ص١٩.

(٣) صحيفة السفير ١٩٩٩/٥/١٩ ص١٥ د. ميشال سبع: هجرة المسيحيين جرح رأيتموه فهلا عالجتموه؟

من خلال ألفي عام استطاع المسيحيون السوريون في هذه المنطقة أن يحافظوا على وضع خاص بهم بفضل تمسكهم بالعلم والثقافة مما أوجد لديهم مهارات خاصة قدروا من خلالها أن يستمروا في عيشهم، مع حرص شديد على التعلق بأرض أجدادهم.

ولكن ما يحصل الآن أن أزمات كثيرة أخذت تنقص من عددهم وفقاً لما كانوا عليه قبل تسعين عاماً مثلاً. ووفقاً لتقرير وزارة الخارجية البريطانية بلغ عدد سكان سوريا الطبيعية عدا سنجق القدس عام ١٩١١ «٢,٨٩٣,٤٠٠» نسمة منهم ٦,٤٤٦,٠٠٠ نسمة مسيحيون، وتشكل هذه النسبة ٢٢% من عدد السكان[1] وفي عام ١٩٥٠ كانت النسبة في الجمهورية العربية السورية ١٥% وعام ٢٠٠٠ (٦%).

ومن أسباب النقص السكاني والهجرة..

١- يطبق المسيحيون النظريات العلمية في الإنجاب والتناسل في خضم مجتمع تتغير فيه ديمغرافية السكان كل عشرين سنة وأقل.

٢- تكاليف الحياة أحجمت الكثير من الشبان على الزواج بحساب تكاليف فتح بيت جديد فكثرت العزوبية بين الشبان والبنات وبلغت درجة ملفتة للنظر.

٣- رغم أزمات الزواج فإن الطلاق بات يخص العائلات القادرة على دفع تكاليفه، أما الفقيرة فلها ملكوت السماء.

٤- كان للمسيحيين مدارسهم مما مكنهم من تعلم اللغات وإجادتها، وهو تقليد توارثوه من أيام الأمويين والعباسيين فتلاشى هذا في أكثر من بلد، وغدا «الكل» يحفظ اللغات والعلم والثقافة.

٥- أخيراً، الصناعات التي حافظوا عليها مئات السنين أصبحت تقلد و لم يعد الشاري يعرف أيهما الأصلي أو المقلد، فبارت البضاعة في المخازن وأصبح الطلب عليها قليلاً.

إلى هذا وذاك لازال دور العلمانيين في شؤون طوائفهم هامشياً ولا يعتد به، وهو ما يجعل لغة الحوار ــ في بعض الطوائف ــ شبه مفقودة بين العلمانيين ورجال الدين، في هذا البلد أو ذاك.

---

(1) Great Britain, F. O. Correspondence relating to The Affairs of Syria. 371/1236/ No47157 (6 November 1911).

المراجع [1]

المكتبة العربية

١. ابن هشام: شرح شذور الذهب تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة التجارية الكبرى ــ مصر ١٩٦٥ طبعة أولى.

٢. ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون دار إحياء التراث العربي ــ بيروت الطبعة الثالثة.

٣. إبراهيم، سعد الدين: المجتمع والدولة في الوطن العربي مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ١٩٨٨.

٤. أبونا، ألبير: في التقرير السنوي للجنة الخيرية لطائفة الكلدان بحلب لعام ١٩٩٧، دار الضاد للطباعة والنشر ــ حلب.

٥. الجندي، أنور: الفصحى لغة القرآن دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ١٩٨٢

٦. الحكيم، يوسف: سورية والعهد الفيصلي المطبعة الكاثوليكية ــ بيروت ١٩٦٦.

٧. السماك، محمد: الأقليات بين العروبة والإسلام دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٩٠.

٨. الطريحي، محمد سعيد: الديارات والأمكنة النصرانية في الكوفة وضواحيها دون ذكر

(١) حرصاً على دقة البحث فإن أي إغفال في ذكر اسم المترجم أو اسم دار النشر أو سنة الطبع في مراجع الكتاب يتحمل مسؤوليته ناشرو هذه المطبوعات.

دار النشر ـــ بيروت ١٩٨١.

٩. الطنطاوي، علي: ذكريات علي الطنطاوي رقم ٢ دار المنار ـــ جدة ١٩٨٩.

١٠. العروي، عبد الله: العرب والفكر التاريخي دار الحقيقة بيروت ١٩٧٣.

١١. الكيلاني، إبراهيم وسلطان، جميل ونمر، حنا وحقي، ممـــدوح: الوجـــيز في الأدب العربي ـــ دمشق ١٩٤٢.

١٢. القلقشندي: صبح الأعشى المجلد الأول بيروت ١٩٦٥.

١٣. أنيس، إبراهيم: اللغة بين القومية والعالمية دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

١٤. أمين، أحمد: فجر الإسلام دار الكتاب العربي ـــ بيروت ١٩٧٥.

١٥. برصوم، البطريرك مارأغناطيوس أفرام الأول: الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة طبعة حمص.

١٦. بدوي، عبد الرحمن: مناهج البحث العلمي دار النهضة العربية ـــ القاهرة ١٩٦٣.

١٧. براهيمي، د. عبد الحميد: العدالة الاجتماعية والتنمية في الاقتصاد الإسلامي مركـــز دراسات الوحدة العربية ـــ بيروت ١٩٩٧.

١٨. تاجر، جاك: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر دار المعارف بمصر.

١٩. حايك، البطريرك أغناطيوس أنطون الثاني: علاقات كنيسة السريان اليعاقبـــة مـــع الكرسي الرسولي ١١٤٣ ـــ ١٦٥٦ مطابع حبيب أخوان ـــ بيروت ١٩٨٥.

٢٠. د. حتي، فيليب: تاريخ العرب ترجمة ادوارد جرجي د. جبرائيل جبور دار غنـــدور ـــ بيروت ١٩٧٤.

٢١. د. حتي، فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ترجمة د. جورج حـــداد وعبـــد الكريم رافق، دار الثقافة بيروت ١٩٨٢ الجزء الأول.

٢٢. د. حتي، فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ترجمة د. كمـــال اليـــازجي دار الثقافة بيروت ١٩٨٣ الجزء الثاني.

٢٣. جورافسكي، أليكسي: الإسلام والمسيحية ترجمة د. خلف الجراد سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢١٥.

٢٤. داود، المطران يوسف: كتاب القصارى المطبعة الأدبية بيروت ١٨٨٧.

٢٥. زريق، قسطنطين: في معركة الحضارة دار العلم للملايين ـــ بيروت ١٩٦٤.
٢٦. ساكا، المطران اسحق: كنيستي السريانية مطابع ألف باء دمشق ١٩٨٥.
٢٧. سركيس، سليم: لبنان وفلسطين والمسيحية توزيع مكتبة السائح ـــ طرابلس ١٩٨٢.
٢٨. سعادة، انطون: نشوء الأمم بدون ذكر اسم ومكان الناشر وسنة الطبع الآثار الكاملة ٥.
٢٩. شربتييه، الأب اسطفان: دليل قراءة الكتاب المقدس ترجمة الأب صبحي حموي دار المشرق بيروت ١٩٨٣.
٣٠. شلحد، د. يوسف: رحلة فتح الله الصايغ الحلبي دار طلاس دمشق ١٩٩١.
٣١. شيخو، لويس: النصرانية وآدابها دون ذكر دار النشر بيروت ١٩١٩ .
٣٢. صليبي، د. كمال: التوراة جاءت من جزيرة العرب ترجمة عفيف الرزاز مؤسسة الأبحاث العربية ـــ بيروت ١٩٨٥.
٣٣. صليبي، د. كمال: تاريخ لبنان الحديث دار النهار بيروت ١٩٨٤ الطبعة السادسة.
٣٤. عبده، سمير: السريان قديماً وحدثاً المعهد الملكي للدراسات الدينية ـــ عمان ١٩٩٧.
٣٥. عبده، سمير: السوريون والحضارة السريانية دار الحصاد ـــ دمشق ١٩٩٨.
٣٦. عبده، سمير: المسيحيون السوريون خلال ألفي عام دار علاء الدين ـــ دمشق ٢٠٠٠.
٣٧. فياض، نبيل: مدخل إلى مشروع الدين المقارن دار اكزكت ـــ جونيه ١٩٩٦.
٣٨. مالك، حنا: الدولة والقومية العربية والدين والوحد، مطابع ألف باء ـــ دمشق ١٩٨٦.
٣٩. مزهر، د. يوسف: تاريخ لبنان العام طباعة بيروت مجلد أول.
٤٠. موسى، منير: الفكر العربي في العصر الحديث دار الحقيقة ـــ بيروت ١٩٧٣.
٤١. معلوف، أمين: الحروب الصليبية كما رآها العرب ترجمة د. عفيف دمشقية دار الفارابي ـــ بيروت ١٩٨٩.
٤٢. مجموعة من الكتاب: نظرية الثقافة ترجمة د. علي سيد الصاوي سلسلة عالم المعرفة

الكويتية رقم ٢٢٣.

٤٣. هدلي، جورج: في كتاب: آفاق المعرفة ترجمة عبد الهادي المختار دار مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٦٢.

٤٤. نجاتي، محمد عثمان: علم النفس في حياتنا اليومية دار العلم ــ الكويت الطبعة الثامنة ١٩٧٩.

٤٥. نصر الله، الاكسرخوس جوزف: منصور بن سرجون منشورات المكتبة البولسية ــ بيروت ١٩٩١.

٤٦. يوسف، د. جمعة سيد: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٤٥.

٤٧. يعقوب الثالث، البطريرك ما أغناطيوس: تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية الجزء الأول بيروت ١٩٥٣.

٤٨. المجموعة الإحصائية السورية لعام ١٩٥٦ السنة التاسعة مديرية الإحصاء وزارة الاقتصاد الوطني ــ دمشق.

صحف ومجلات

٤٩. صحيفة النهار ــ بيروت ملحق يوم ١٩/١٠/١٩٩٩.

٥٠. صحيفة النهار ــ بيروت ملحق يوم ٤/١٢/١٩٩٩.

٥١. صحيفة النهار ــ بيروت ٩/٢/١٩٩٩.

٥٢. صحيفة الحياة ــ لندن ٢٦/٤/١٩٩٨.

٥٣. صحيفة الحياة ــ لندن ٣/٩/١٩٩٩.

٥٤. صحيفة الحياة ــ لندن ٤/٩/١٩٩٩.

٥٥. صحيفة الحياة ــ لندن ١١/١٢/١٩٩٩.

٥٦. صحيفة السفير ــ بيروت ١٩/٥/١٩٩٩.

٥٧. صحيفة العمل ــ بيروت ٢٥/٨/١٩٨٥.

٥٨. صحيفة الشرق الأوسط ــ لندن ١٩٩٩/١٢/٢٤.
٥٩. صحيفة تشرين ــ دمشق ١٩٩٧/٥/٧.
٦٠. صحيفة التربية ــ حلب ١٩٥٤/١٠/٩.
٦١. مجلة المجلة ــ لندن ١١ــ١٩٩٩/٤/١٧.
٦٢. مجلة المدار ــ بيروت العدد الأول السنة الأولى ١٩٩٤.
٦٣. مجلة الحكمة ــ القدس العدد ٢ــ٣ سنة ١٩٩٧.
٦٤. مجلة النشرة ــ عمان العدد ١٢ خريف ١٩٩٩.
٦٥. مجلة الهلال ــ القاهرة السنة التاسعة ١٩٩١.
٦٦. مجلة روز اليوسف ــ القاهرة ١٩٩٨/٩/٢١.
٦٧. دليل مجلة المسرة ــ حريصا السنة ١٩٤٧.
٦٨. مجلة المسرة ــ حريصا: السنة ١٩٤٦/٣٢ شباط.
٦٩. السنة ١٩٤٨/٣٤ أعداد كانون الثاني، تموز، تشرين الثاني.
٧٠. السنة ١٩٤٩/٣٥ أعداد نيسان، كانون الأول.
٧١. السنة ٣٦/ ١٩٥٠ أعداد نيسان، تشرين الثاني.
٧٢. السنة ١٩٥١/٣٧ كانون الثاني.
٧٣. السنة ٣٨/ ١٩٥٢ نيسان
٧٤. السنة ١٩٥٣/٣٩ أيار.
٧٥. السنة ١٩٥٤/٤٠ أعداد نيسان، كانون الأول.
٧٦. السنة ١٩٥٦/٤٢ أعداد كانون الثاني، شباط، تموز.
٧٧. السنة ٤٣ /١٩٥٧ آذار.
٧٨. السنة ١٩٥٨/٤٤ آذار.
٧٩. السنة ١٩٦٥/٥١ آذار.
٨٠. السنة ١٩٦٧/٥٣ حزيران.
٨١. السنة ١٩٦٨/٥٤ حزيران، كانون الول.

٨٢. السنة ٥٥ /١٩٦٩ شباط.

٨٣. السنة ٥٦ /١٩٧٠ آذار.

٨٤. السنة ٥٧/١٩٧١ أعداد نيسان، تشرين الثاني.

٨٥. السنة ٥٨ /١٩٧٢ تموز.

٨٦. السنة ٥٩/١٩٧٣ آذار.

٨٧. السنة ٦١/١٩٧٥ أعداد آذار، أيار.

٨٨. مجلة المشرق ـــ بيروت السنة ١٩٠٠

٨٩. السنة ٦٦ الجزء الثاني ١٩٩٢.

٩٠. السنة ٦٩ الجزء الثاني ١٩٩٥.

٩١. السنة ٧٠ الجزء الأول ١٩٩٦.

٩٢. السنة ٧١ الجزء الأول ١٩٩٧.

٩٣. السنة ٧١ الجزء الثاني ١٩٩٧.

٩٤. السنة ٧٣ الجزء الثاني ١٩٩٩.

الكتب الأجنبية

95. Carl, E. G. H. Becker: Islamstudien, vol i , Leipzig 1924.

96. Hussey, Joan M.: Cambridge Mediecal History, vol iv, Ed. Cambridge 1966-67.

97. Me Laurine, R.D: The Poliical Rob of Minarity Group in The Middle East. New York 1979.

98. Malina, Bruce 1: Christian Origins and Cultural Anthropology Practical Models for Billical interpretation. Atlanta: John Knox Press 1986.

99. The Eastern Churches Quarterly vol v No. 11 July September 1946.

100. Great Britain, F. O. Correspondence Relating to The Affairs of Syria 371/1236/No. 47157/ (6 November 1911).

الفهرس

مقدمة **٥**

تمهيد **٩**

سوريا واستيعاب المسيحية ١١

اللغة وحدت الأديان ١٤

مهمة التاريخ في الوقت الحاضر ١٧

مدخل إلى قيام المسيحية **١٩**

اليهود وقيام المسيحية ٢٠

نشأة المسيحية ٢٣

المسلمون والمسيحيون ونسيج الوطن الواحد **٢٧**

دفائن في التاريخ بين المسيحية والإسلام ٢٩

العائلة الروحية المشتركة ٣١

يكبر الوطن بأبنائه ٣٣

ورثة الماضي ٣٧

دعوة للحوار ٤١

المسيحية السورية من الأكثرية إلى الأقلية **٤٣**

السريان وبزوغ الإسلام ٤٤

المسيحيون وبزوغ الإسلام ٤٧

معرفة الأقلية المسيحية ٥٢

المسيحية وانقسام الطوائف **٦١**

إعلان الانشقاق ٦٥

التزاحم اللاتيني على كنائس الشرق ٦٩

من الكاثوليكية إلى البروتستانتية ٧١

al-maktabeh
مكتبة المهتدين

من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية ٧٢
الطوائف المسيحية والبحث عن الهوية ٧٧
العروبة أولاً ٧٩
العِلْم لبناء الوطن ٨١
الوصول إلى الحقيقة ٨٤
كنيسة السريان الأرثوذكس ٨٥
الكنيسة المارونية ٨٨
كنيسة الروم الأرثوذكس ٩٢
الروم الكاثوليك ٩٥
خاتمة ٩٩
القوة التنظيمية للكنائس ١٠٠
التعاون والخوف ١٠١
حرب الكنائس والرعايا ١٠٢
الكنيسة المسيحية ومغتربيها ١٠٥
المراجع ١٠٩
الفهرس ١١٥